مشيخة الأزهر الشريف
الإدارة المركزية للشئون الفنية

مُشكلةُ اللُّغةِ العربيّةِ

لماذا أخفقنا في تعليمها؛ وكيف نعلِّمها؟

بقلم
محمّد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء
(ت ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م)

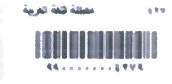
تقديم
أ.د/ حسن الشافعي
عضو هيئة كبار العلماء

إعداد
الباحثين بالإدارة المركزيّة للشُّئون الفنّيّة

مشكلة اللغة العربية .. لماذا أخفقنا في تعليمها ؟ وكيف نعلمها؟
محمد عرفة



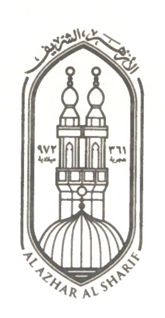
مشيخة الأزهر الشريف
الإدارة المركزية للشئون الفنية



مُشكلةُ اللّغةُ العَربيّةُ

لماذا أخفَقْنا في تعليمها، وكيف نعلّمها؟


بسم الله الرحمن الرحيم



مشيخة الأزهر الشريف
الإدارة المركزية للشئون الفنية

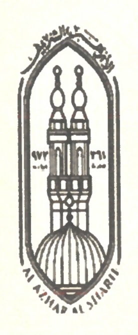
مُشكلةُ اللغةِ العربيّةِ

لماذا أخفقنا في تعليمها، وكيف نعلّمها؟

بقلم
محمّد عرفة
عضو جماعة كبار العلماء
(ت ١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م)

تقديم
أ.د/ حسن الشافعي
عضو هيئة كبار العلماء

إعدادُ
الباحثين بالإدارة المركزيّة للشُّئون الفنّيّة



فهرست الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية :

مشكلةُ اللُّغةِ العربيةِ

لماذا أخْفَقنا في تعليمها ؛ وكيف نعلِّمُها

١٤٤٦هـ-٢٠٢٤م

ص؛ ١٧ × ٢٤سم

عدد الصفحات ١٧٦ صفحة

*** إعداد**

الباحثين بالشئون الفنية العلمية

*** المراجعة العلمية واللغوية**

ياسر محمد عبد الرحمن

الناشر :

الأزهر الشريف

الصف الطباعي والتنسيق :

ناصر محمد يحيى

تصميم الغلاف:

حسام صلاح الضِّرغامي

*** إشراف**

د . محمد أحمد معبد

رئيس الإدارة المركزية للشئون الفنية

*** الإشراف العام**

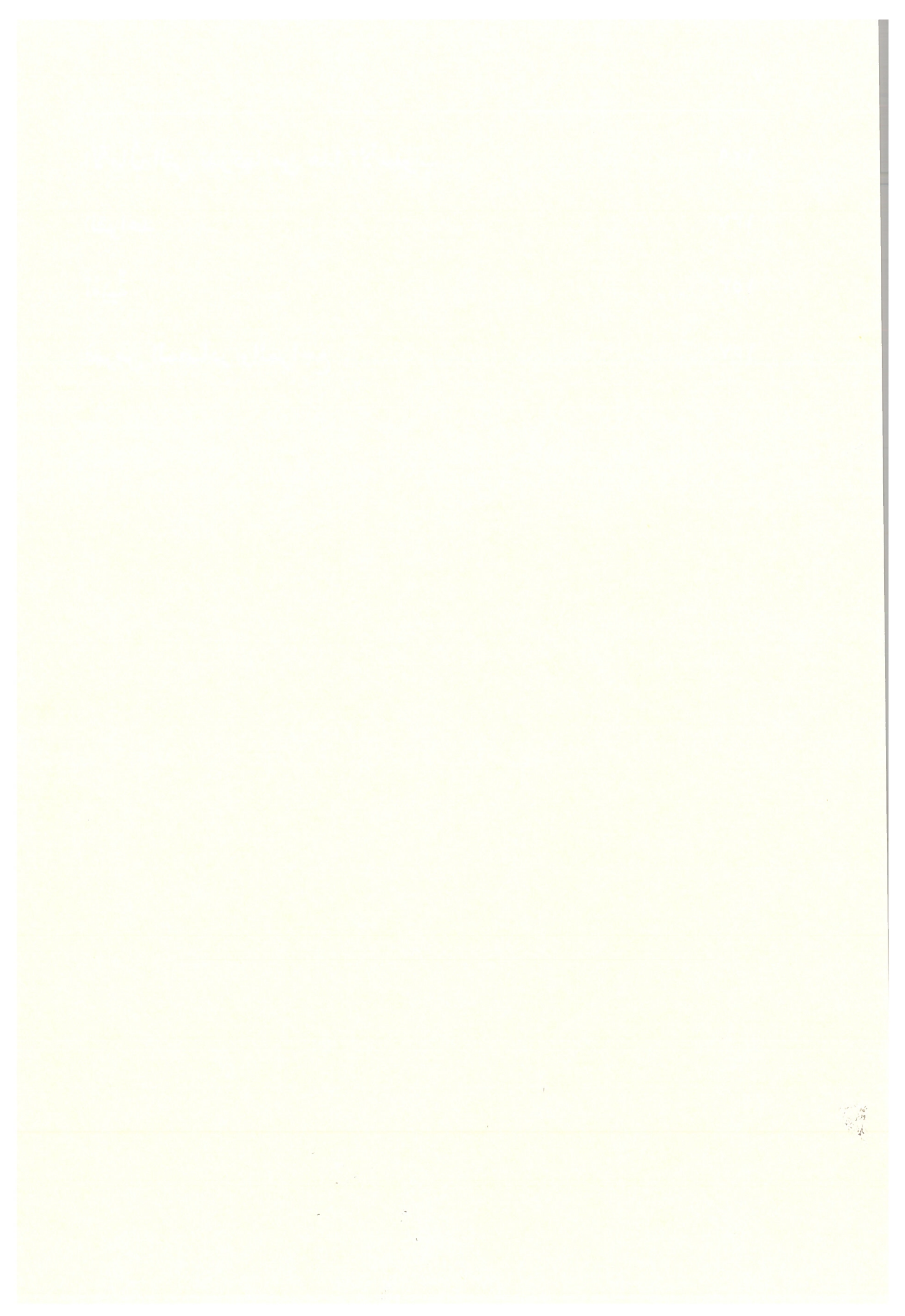
د . أتى خضر

رئيس قطاع مكتب شيخ الأزهر

(يُباعُ هذا الكِتاب بسِعر التَّكلِفة وعائده مُخصَّصٌ لطباعةِ كُتُبِ التراث الإسلامي)

(الآراءُ الواردةُ في الكتاب لا تُعبِّرُ بالضَّرورةِ عن رأي الأزهرِ الشَّريفِ)

الفهرس الإجمالي



تقديم

الحمدُ للَّه الذي أنزل على عبدِه الكتابَ ولم يجعلْ له عوجًا، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمدِ بنِ عبد اللَّه الهاشميِّ القرشيِّ، أفصحِ ناطقٍ بالعربيةِ، وخاتم المرسَلين والنبيين، الذي كانت بَعْثتُه رحمةً للعالمين، وفتحًا مبينًا للبشر أجمعينَ. اللَّهمَّ آمين.

وبعد، فلقد كان شيخُ شيوخِنا فضيلة الأستاذ «محمَّد عرفة» -رحمه اللَّه وطيَّب ثراه- عَلَمًا من أعلام نهضتنا المعاصرة، وقادتها الفكريِّين، فيما بين عامِ الثورة الشعبيةِ المصريةِ عامِ ١٩١٩م، وعامِ استرداد الكرامة الوطنية والعربية، عامِ ١٩٧٣م، كان خلال هذه الفترة- نصف قرن من الزمان- داعيةً للإصلاح، مجدِّدًا للفكر، حارسًا على التراث مدافعًا عن الأزهر؛ انتصارًا للحقِّ والدِّين والوطنيَّة. فكان اليدَ اليمنى لشيخنا الإمام الأكبر شيخ الأزهر، عالِم المشرق والمغرب، فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين (ت ١٣٧٧هـ) في جهودِه الرسميةِ والشعبيةِ، وبصفةٍ خاصةٍ في «جمعيةِ الهدايةِ الإسلامية»، ومجلَّتها الرَّصينة، وقد ازدانت بثمراتِ قلَمه وفكْره أبرزُ منابر الإعلام في تلك الفترة؛ كـ: المنار، والرسالة، والهلال والمقتطَف، وجريدتي المصري والأهرام، وغيرها.

وقد أحسَن الأزهر الشريف - وقد مضَى على رحيلِ الشَّيخ نحو نصف قرنٍ- باختيارِ أحد بحوثه القيِّمة عن «مشْكِلة اللُّغة العربيَّة» في وقته، التي صارت أزمتَنا الراهنةَ على صعيد الفكر والثقافة الوطنية والقومية- ليعيد

تقديمه للقراء في العالم الإسلامي؛ إذ وضع -رحمه اللَّه- يده على موضع الألم، وسرِّ الإخفاق والقصور، في حَقْل تعليم العربية، وهو الغَفْلةُ عن طبيعة اللُّغة -أيَّةِ لغةٍ- وأنها مَلَكةٌ تكتسَب، لا طبيعةٌ تُورث، وأن السبيل إلى اكتسابها- كما وافق أكثر التربويين في مصر والعالم العربي- هو الممارسة والاستماع، والتلقِّي والتذوُّق، وحفْظ النُّصوص الرائعة، لاحفظ القواعد النحوية الذائعة.

وإنه ليشرِّفني، ونحن على الدرب سائرون، وبهموم الأمة مسكونون، أن أزُفَّ إلى القرَّاء في العالَمين العربي والإسلامي، بل في العالَم كلِّه، هذه التُّحفةَ الفاخرةَ، ليواصِل فكْرُ الشَّيخ الراحلِ أثرَه الحميدَ في أجيالنا المعاصرة، ونهضتنا الحاضرة.

والله يقول الحقَّ وهو يهدي السبيل

وكتبه: حسَن الشَّافعي

عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف

طليعة الكتاب

الحمد للَّه الذي خلق الإنسان وعلَّمه البيان، والصَّلاةُ والسَّلام على عبده ورسوله محمدٍ المبعوثِ بأوضحِ حُجَّةٍ وأظهرِ برهان، صلى اللَّه عليه وعلى آله وأصحابه وتابعيهم بإحسان.

أما بعد، فإن اللَّه فضَّل اللغة العربية وشرَّفها على سائر اللغات، وجعَل تعلُّمها وفهمها ضرورةً لفهْم معاني كتابه سبحانه، وذلك أن القرآنَ نازلٌ بلغةِ العربِ، ورسولَ اللَّه ﷺ عربيٌّ؛ فمن أراد معرفةَ ما في كتاب اللَّه -جلَّ وعزَّ- من كلِّ كلمةٍ غريبةٍ أو نَظْمٍ عجيبٍ- لم يَجِدْ من العِلْم باللُّغةِ بدًّا، وليس العِلْم بها على سبيلِ الإحاطةِ؛ فذلك ليس بمقدورٍ[١]؛ وهي خيرُ اللُّغاتِ والألْسنةِ، والإقبالُ على تفهُّمِها من الدِّيانةِ؛ فهي الرُّكنُ الرَّكينُ، وأداة العِلْم ومِفتاحُ التفقُّه في الدِّين[٢].

ويحظى تعليمُها وتعلُّمها بأهميَّة كبيرة لدى اللُّغويين والتَّربويين وأساتذة الجامعات، ولا سيَّما في ظلِّ المخاطرِ والتحديَاتِ التي تواجهها اليومَ -مثلما تواجه أبناءها- وأبرزُها: الازدواجُ اللُّغويُّ، وطغيان العاميَّة، ومزاحَمة اللُّغات الأجنبيَّة لها حتى في قاعاتِ الدرسِ في كلياتِ اللغةِ العربيةِ، وهو ما أدَّى إلى ضَعْفِ الملَكة اللُّغوية لدى متكلِّميها.

---

(١) الصاحبي لابن فارس: ٥٠ بتصرُّف، وعن شَرف العربية راجع: الصَّعقة الغَضبية في الردِّ على منكِري العربية لنجم الدين الطُّوفي (ت ٧١٦هـ)، ٢٣٣-٢٧٩، روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام لابن الأزرق الغَرْناطي (ت ٨٩٦هـ)، ٨٩-٣٠٦.

(٢) فقه اللغة للثعالبي: ١٢، بتصرُّف.

وكانت هناك محاولاتٌ لتيسير النحو والعربيَّة، بدأها الشيخُ رِفاعةُ الطَّهْطاويُّ (ت ١٢٩٠هـ)، في كتابه «التُّحْفة المكْتبيَّة لتقريب اللُّغة العربية». واستمرت بعد ذلك جهود أبناء الأزهر ودار العلوم وأساتذة الجامعة المصرية وخرِّيجيها في سبيل تيسير العربية وتذليل طُرق تدريسها.

وقد تعدَّدت وِجْهاتُ النظرِ في تقديمِ العلاجِ للمشكلاتِ التي تواجه تدريسَ العربيَّةِ في المدارس والمعاهد والجامعات، إلا أن بعضَها كانت غير عملية، وبعضَها الآخر لم يؤخذ مأخذَ الجدِّ في تطبيقه؛ لذلك ظلت الطريقةُ التقليديةُ في تدريس اللُّغة العربيَّة قائمةً.

ونحن إذ نقدِّم هذا الكتابَ[1] الأغرَّ للقارئ الكريم، في ظل الهجمة الشرسة التي تواجهها العربية اليوم، من كل حدب وصوب، في محاولة لتذويبها ومن ثم طمس الهوية- فإنَّنا نلفِت أنظارَ أبناء العربيَّةِ والناطقينَ بها، والمجامعَ اللُّغويةَ، والجامعاتِ، ومراكزَ البحثِ، والمؤسساتِ اللُّغويةَ المتخصِّصةَ، إلى توحيد الجهود وسلوك كلِّ السُّبل التي تعيد للعربيَّة مكانتها ورَوْنَقها بين لغات العالم.

واللَّهَ سبحانه وتعالى نسأل أن يعمَّ النفعُ بهذا الكتابِ، وأن يسهم في تعزيز مكانة العربيَّة لدى أبنائها، وترسيخِها في نفوسهم، وأن يَسُدَّ الثُّلْمة في هذا الباب، وحَسْبُنا أنَّا نُخْرِج أثرًا نفيسًا للأستاذ الشيخ محمد عرفة، علَّنا

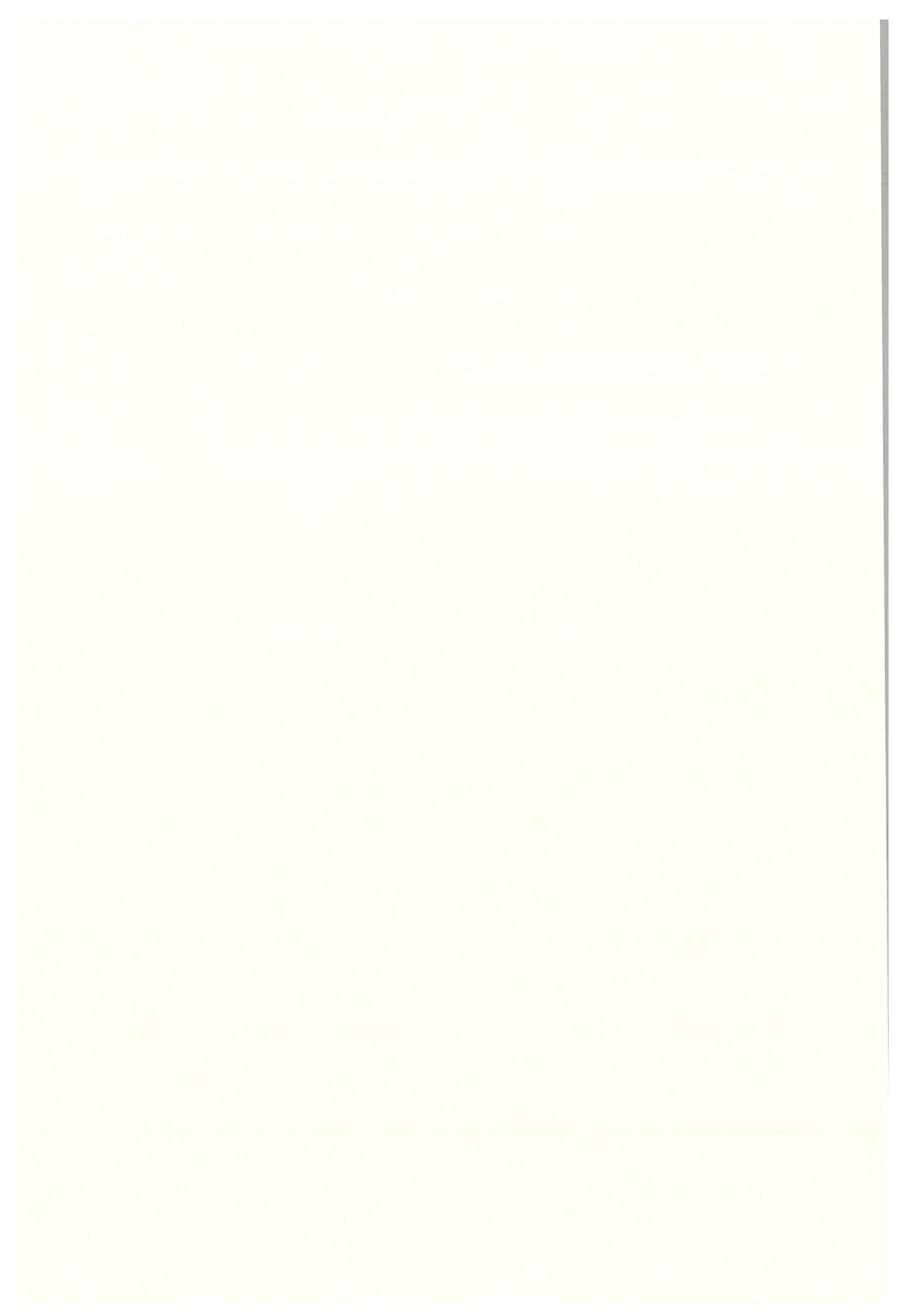
(١) صدر الكتاب هدية مع مجلة الأزهر، عدد جمادى الأولى ١٤٤٢هـ/ ديسمبر- يناير ٢٠٢٠م، بمناسبة اليوم العالمي للغة العربية.

نذكِّر الأجيال المعاصرة بمكانته بين علماء الأزهر، وبارتباطه بالعربية وعلومها ودفاعه عنها وعن الإسلام والأزهر الشريف.

والله من وراء القصد

الإدارة المركزية للشئون الفنية

قطاع مكتب شيخ الأزهر



مقدمة:

ظلَّ الأزهرُ الشريفُ منارةً كبرى لعلوم الإسلام وقلعةً حصينةً تَرْتَدُّ عندها سهامُ المبْغِضينَ والكارهينَ، وحصنَ الوطنيَّة المنيع، الذي تجتمع إليه الأفئدةُ والقلوبُ، على الرَّغم من الممارساتِ التي اتَّبعها الاحتلال الإنجليزي في مصر منذ الربع الأخير من القرن التاسعَ عشر والنصف الأول من القرن العشرين؛ للحيلولة دون أدائه رسالتَه في مصر وفي مختلف أقطار العالم الإسلامي.

وقد ازدهرت الحركة الدِّينيةُ والعلميةُ والثقافيةُ والفكريةُ في الأزهر في تلك الفترة، على يد كبار شيوخه وعلمائه، ومن بينهم: فضيلة الشَّيخ محمد الأحمدي الظَّواهري شيخ الأزهر (ت ١٣٣٦هـ)، وفضيلة الشَّيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر (ت ١٣٣٥هـ)، وفضيلة الشَّيخ محمد مأمون الشِّناوي شيخ الأزهر (ت ١٣٦٩هـ)، وفضيلة الشَّيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر (ت ١٣٧٧هـ)، وفضيلة الشَّيخ إبراهيم حَمْروش شيخ الأزهر (ت ١٣٨٠هـ)، والشَّيخ يوسف الدِّجوي (ت ١٣٦٥هـ)، والشيخ إبراهيم الجِبالي (ت ١٣٧٠هـ)، وغيرهم من العلماء الذين قلَّ أن يوجَد لهم مَثيلٌ[1].

والشَّيخ الأستاذ محمَّد عَرفة واحدٌ من هؤلاء العلماء الذين أسهَموا في الحركة العلميَّة في الأزهر الشَّريف منذ ثلاثينات القرن العشرين، وهو صاحب جهود محمودة في الذَّبِّ عن اللغة العربية وفي تجديد علومها،

(١) انظر مقال د. محمد عبد المنعم خفاجي، بعنوان: «محمد عرفة (١٣٠٦ - ١٣٩٢هـ)»، مجلة دعوة الحق، العدد (٨)، السنة (١٦)، شوال ١٣٩٤هـ/ نوفمبر ١٩٧٤م.

منطلقًا من أصولها، محافظًا على تراثها، حريصًا على الإفادة مما توصَّل إليه الدرسُ اللُّغويُّ الحديث في الغرب؛ لتوظيفه في حلِّ المشكلات التي تتعلَّق بتعليم اللُّغة العربية، بما يناسبها ويتواءم مع طبيعتها.

والشَّيخ في كتابه يقف على أسباب مشكلة «الإخفاق في تعليم اللغة العربية»، ويقدِّم لها العلاجَ الناجعَ، على نحو ما يجد القارئ الكريم في الصَّفحاتِ التَّاليةِ.



الشيخ محمد عرفة

(سيرته، جهوده العلمية، مواقفه)

التعريف بالشيخ محمد عرفة[(١)]:

هو العلَّامة الناقد المجدِّد الفيلسوف الداعية المصْلح المفسِّر شيخ النحويين: محمَّد بن أحمد بن عَرَفَةَ المالكيُّ الأزهريُّ.

ولد سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م، وتلقَّى تعليمه الأوَّلي بمسجد دسوق، والتحق بمعهد دسوق الديني سنة ١٩٠٤م، وحصل منه على الابتدائية الأزهرية، ثم التحق بمعهد الإسكندرية الديني وحصل منه على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩١٧م، ليلتحق بعدها بالقِسْم العالي بكلية الشريعة ويحصل على شهادة العالِمِية عام ١٩٢١م.

وعقب تخرُّجه عين مدرسًا بمعهد الإسكندرية الديني، اختير للتدريس أستاذًا بكلية الشريعة عام ١٩٣١م، إبان نشأة الكليات وعين وكيلًا للكلية

---

(١) «الدين والحياة والأزهر»، مقال للشيخ محمد عرفة ترجم فيه لنفسه بجريدة المصري، يونيو ١٩٥٢م، وراجع ترجمته في: «محمد عرفة (١٣٠٦-١٣٩٢هـ/ ١٨٩٠-١٩٧٣م)»، مقال للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي بمجلة دعوة الحق، العدد (٨)، السنة (١٦)، شوال ١٣٩٤هـ/ نوفمبر ١٩٧٤م، الأعلام ٦/ ٢٥، الأزهر في ألف عام ٣/ ١٦١-١٦٩، النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ١/ ٥٢٥-٥٤٢، نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر ص ١٠٣٩، جمهرة أعلام الأزهر الشريف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين ٦/ ٢٣٧-٢٣٩.

نفسها عام ١٩٣٣م، ثم انتقل للتدريس بكلية اللغة العربية أستاذًا للفلسفة الإسلامية، وظلَّ بها ثلاثةَ عشرَ عامًا، ودرَّس خلال تلك المدَّة الأدبَ والبلاغةَ لطلاب تخصص الأستاذية، واختير عضوًا بمجلس إدارة الكلية، ونال كُسْوة التشريف العلمية من الدرجة الأولى، ثم أستاذًا ذا كرسي في كليات الأزهر الشريف.

ونال في عام ١٩٤٣م، عضوية جماعة كبار العلماء، وفي عام ١٩٤٦م اختير مديرًا للوعظ بالأزهر، وظل فيه حتى عام ١٩٤٨م[١]، ثم مديرًا لمجلة الأزهر بعد الأستاذ أحمد حسن الزيات[٢]، ثم أستاذًا متفرغًا في كليات الأزهر وموجهًا للثقافة فيه.

كما كان عضوًا في العديد من اللجان، كاللجنة العلمية لنشر الدعوة في سبيل اللَّه ومقاومة التبشير، ولجنة الاحتفال بالعيد الألفي لذكرى أبي الطيب المتنبي (ت ٣٥٤هـ)، الذي عقد في دمشق. واللجنة المشرِفة على مؤتمر الثقافة العربية الذي عقد في لبنان سنة ١٩٤٧م.

وقد ترجم الشيخ لنفسه ترجمة شملت محاور حياته الفكرية، في مقال نُشِر في صحيفة «المصري»[٣]، تحت عنوان «الدين والحياة والأزهر». وقد دارت

---

(١) انظر: الأزهر في ألف عام ٣/ ١٦٦، ١٦٨.

(٢) كانت مجلة الأزهر تضم في تلك الفترة نخبة من الشيوخ والكتاب والعلماء المبرِّزين، منهم: الشيخ محمد الخضر حسين، الشيخ محمد البهي، الشيخ محمود شلتوت، الشيخ محمد بخيت المطيعي، الأستاذ أمين الخولي، الدكتور زكي مبارك. انظر: الأزهر في ألف عام ٢/ ١٢٩.

(٣) يونيو ١٩٥٢م.

حياته في مجالات: الدعوة والدفاع عن الإسلام وتاريخه وحضارته، والإصلاح الاجتماعي، والإسهام في حلِّ مشكلات الشباب[١]، والحفاظ على الأسرة المسلمة، والأزهر والدفاع عنه والدعوة إلى إصلاحه وتطوير نظام التعليم فيه[٢].

ويلخِّص هذا المقالُ رأيَه في طبيعة الإسلام الداعية إلى الإخاء الإنساني والتعاون البشَري، ومواقف الأزهر الوطنية في العصر الحديث[٣]، وفتاويه في الطلاق، وردَّه على د. طه حسين فيما قاله في محاضراته التي ألقاها على طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية، والتي حملت بعض الطعن على القرآن الكريم؛ إذ انبرَى له الشيخ للردِّ عليه في كتابه «نقض مطاعن في القرآن الكريم»[٤]، وكذلك ردَّه على الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه «إحياء النحو».

ويلخص كذلك كلامَه على تأليفه «السِّرّ في انتشار الإسلام»، الذي كلَّفته به جماعة كبار العلماء[٥]، وكتاب «مشكلة اللغة العربية؛ لماذا أخفقنا في

(١) انظر مقاله: «مشكلات الشباب»، بمجلة الهداية الإسلامية، المجلد (٢٢)، الجزء (٣)، ربيع الأول ١٣٦٩هـ/ ديسمبر ١٩٤٩، يناير ١٩٥٠م، ص ٣٣-٣٧.

(٢) راجع مقاله: «دفاع عن الأزهر»، بمجلة الأزهر، المجلد (٢٤)، الجزء (٧)، رجب ١٣٧٢هـ/ مارس ١٩٥٣م، ص ٧٨٣- ٧٨٥، ومقاله بعنوان: «إصلاح الأزهر والدكتور طه حسين»، بمجلة الهداية الإسلامية، المجلد (١)، الجزء (٤)، رمضان ١٣٤٧هـ/ فبراير، مارس ١٩٢٩م، ص ١٥٦-١٦٠.

(٣) راجع: «رسالة الأزهر في القرن العشرين»، التي ندَّد فيها بالسياسة الحزبية، ودعا إلى حرية الرأي، والتواصي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٤) انظر صـ ٢٦ من كتابنا.

(٥) انظر صـ ٢٥ من كتابنا.

تعليمها وكيف نعلمها»، وهو الكتاب الذي بين أيدينا، وسيأتي الكلام عليه مفصَّلًا، وحَمْلَه على الشعر الماجن[١]، وأحاديثه بالإذاعة ومقالاته بالأهرام -على وجه الخصوص- التي حمل فيها على الأغاني الهابطة الخليعة والروايات المفسِدة للأخلاق، ودعا إلى التمسك بتعاليم الإسلام وفضائله وآدابه حتى تنهض الشعوب الإسلامية وترتقي.

نحن أمام شيخٍ عالمٍ مجدِّد، مفسِّر فقيه فيلسوف تربوي مصلح، حجة في علوم اللغة صاحب نظرية في تعليمها، وصاحب رؤية في تيسير النحو واللغة، ودعوةٍ إلى التجديد في علوم البلاغة، وهو الذي لم يمالئ دعاة التجديد في اللغة والنحو، لكنه كان يؤمن بضرورة الإفادة من المنجَز العلمي الحديث في مناهج اللغة، وعندما يكتب عن مشكلات التعليم في مصر في عصره فإنما يصدُر عن تربوي خبير، يرى ضرورة الأخذ من الحضارة الغربية ما يناسب حضارتنا وتراثنا ولغتنا، وخاصة في مجال العلم، وأن نَحُلَّ مشكلاتنا بالطرق التي توصل إليها العلم[٢]. وهو المفسِّر البصير بآيات الأحكام، والفقيه الحاذق، الذي كان أولَ من أوجَب إعادة النظر في الطلاق المعلَّق وطلاق المكْرَه والغضبان والطلاق الثلاث بلفظٍ واحدٍ[٣]، والذي كان لمقترحاته- وهو طالب- على قانون الأحوال الشخصية رقم (٢٥) لسنة ١٩٢٠م، دور في تعديله فيما بعد عند صدور القانون الجديد عام ١٩٢٩م[٤]، وكان لفتاويه هذه الفضلُ في

(١) يتجلَّى ذلك في كلمته التي ألقاها في مؤتمر تأبين أمير الشعراء أحمد شوقي (ت ١٣٥١هـ)، وكلمته التي ألقاها في مؤتمر الثقافة العربية الذي عقد في لبنان سنة ١٩٤٧م.

(٢) انظر ص ٥٠، ٥١ من كتابنا.

(٣) انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ١/ ٥٢٧.

(٤) انظر: الأزهر في ألف عام ٣/ ١٦٣.

الحفاظ على تماسك الأسرة وحماية الشباب من الشَّتات والضياع والانزلاق[١]، وهو الغيور على الإسلام والمدافع عنه وعن تاريخه وحضارته، الباحث في الأسباب التي تجمع المسلمين والأسس التي يمكن الأخذ بها حتى يعودوا إلى المشهد الحضاري كما كانوا من قبل، وهو المدافع عن الأزهر، المؤمن برسالته، الذي يعي ماضيَه ويسعى لتطوير حاضره واستشراف مستقبله.

وهو كذلك الفيلسوف المفكِّر المستنير واسع الأفق الذي يرى ضرورة التعاون بين الإسلام والغرب فيما يجمعهما من خدمة الإنسان والعمل لصالحه.

تأثر الأستاذ الشيخ محمد عرفة بفكر الإمام محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ) وبنَهْجه الإصلاحي؛ وكان واحدًا من الذين هضموا التراث ولاقحوه بقراءة علوم العصر، والاطلاع على المذاهب الحديثة.

وكان -رحمه اللَّه- ألمعيًّا حادَّ الذهن متَّقد الذكاء قاطع الحجَّة ساطع البرهان واضح المنطق قويَّ الملَكة سريع البديهة، ذا رأي وحزم وجرأة في الحق وصراحة غير معهودة، عالمًا مدقِّقًا ومفكرًا محيطًا بآثار القدامى والمحْدَثين والمعاصرين، وكان له باعٌ في فهم التراث وإبراز دُرَره وكنوزه وصيد أوابده وشوارده، يحيط بجوانب الموضوع الذي يعالجه، وقد مرَّن فكْرَه على النظر ودرَّبه على المنطق، يستطيع تخليصَ الحجَّة من الأقوال ويصل إلى لُبابها ما لا يصل إليه غيرُه، حريصًا مع كلِّ ذلك على التزام الدَّليل، مع نصاعة البيان وحلاوة الأسلوب، وعفَّة القلم واللسان،

---

(١) الأزهر في ألف عام ٣/ ١٦٣.

وتواضع العلماء مع الوقار والهيبة والإجلال، مؤمنًا بحرية الرأي، يراها السبيل الوحيد لتقدُّم الإنسانية[١].

دوره الوطني والاجتماعي:

كان الشيخ على صعيد الأحداث الوطنية، دائمًا يدعو إلى الرأي النافع الذي فيه مصلحة الوطن، والذي يجمع بين عنصري الأمة، يقول: «وكنت أكتب في كلِّ مناسَبة أرى الرأي النافع فأدلي به وأدعو إليه . . . ودعوت إلى الصَّفاء والوئام بين عنصري الأمَّة، وكنت أكتب في المناسبات الدينية كالهجرة النبوية والمولد النبوي، وكنت أؤمن بالوحدة ويُمْنِها وأكره الفُرْقة والانقسام . . . وأحُثُّ على التعاون والوَحْدة»[٢].

موقفه من الشيعة:

كان الأستاذ عضوًا في جماعة التقريب بين السُّنة والشيعة، وكتب بمجلة «رسالة الإسلام» عدَّة مقالات، وبعد أن تبيَّن له أهداف الشيعة ومطامعهم التي يتوارَوْن خلْفَها، ترك جماعة التقريب؛ وكتب يبين أهداف الشيعة، وقدَّم لكتاب «الوشيعة في نقد عقائد الشيعة»[٣] لموسى جار اللَّه (ت ١٣٦٩هـ).

---

(١) انظر: الأزهر في ألف عام ٣/ ١٦٧.

(٢) انظر: الأزهر في ألف عام ٣/ ١٦٦.

(٣) طبع كتاب «الوشيعة» الطبعة الأولى عام ١٩٣٥م، والطبعة الثانية ١٩٨٢م، وتضمَّنت تصدير الشيخ محمد عرفة للكتاب، وانظر: «الأزهر والشيعة: تاريخ وفتاوى وآراء»، تقديم وتعليق د. محمد عمارة، هدية مجلة الأزهر، المحرم ١٤٣٤هـ، ص ٣٥-٥٧.

دعوته إلى التجديد في البلاغة:

كان الشيخ عرفة أحد دعاة التجديد في البلاغة، في ظل اتجاهات تعدَّدت وأفكار تخاصمت، تشهد بذلك كتاباته في ما أودعه في كتابه «مشكلة اللغة العربية؛ لماذا أخفقنا في تعليمها وكيف نعلِّمها»[١]، وفي مقاله بمجلة الأزهر تحت عنوان «علوم البلاغة في الميزان»[٢]، الذي يحاول فيه الربط بين قواعد البلاغة وأحكام الذوق ومَلَكات النفْس، وكذلك في محاضراته في البلاغة التي كان يلقيها على طلاب تخصص الأستاذية بكلية اللغة العربية[٣].

مؤلفاته:

ترك الشيخ محمد عرفة تراثًا متنوِّعًا في مجالات عدَّة، وقد عكست هذه المؤلَّفات غَيْرتَه على الإسلام وحضارته وتاريخه وتراثه التَّليد، وعلى الأزهر واللغة العربية، وفيما يلي عرض لها.

- الإسلام أم الشيوعية[٤]:

يدافع فيه عن الإسلام ويَسْرُد مآثره ومفاخره وتعاليمه ويقدم رأيه في عالميته وسر انتشاره، ويوازن بينه وبين الشيوعية، ويبيِّن حقيقة كلٍّ منهما،

---

(١) انظر الصفحات ٩٥-١٠١ من كتابنا.

(٢) عدد ربيع الأول عام ١٣٧٢هـ، المجلد (٢٤).

(٣) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ١/ ١٧٦.

(٤) طبع بمطابع دار الكتاب العربي عام ١٣٧٩هـ، (في ١٢٠ صفحة).

وأيهما يوافق طبيعة الوجود ويكون أدعى للتقدم الإنساني، ويتحدث كذلك عن ضرورة القتال في الإسلام دفاعًا لا بغيًا وعدوانًا.

والإسلام في رؤية الشيخ: عقيدةٌ في القلب، وقانونٌ في الحكْم، وقواعدُ في الأخلاق، ونظامٌ في الاجتماع، ودستورٌ في الحياة السَّعيدة، ورباطٌ بين المسلمين، ويخطئ من يظن أنه ينظِّم الصلة بين العبد وربِّه فقط، وأنه لتحصيل السعادة الأخروية، ولم يُعْنَ بالدنيا ولا بالسعادة فيها.

- إنقاذ البشر من أن يُفْنوا بعضهم بعضًا بالحرب الذَّرِّيَّة[١]:

يعكس الكتاب رؤية العالِم الأزهري الذي يدرك الواقع ومشاكله، والمخاطر المحيطة بمستقبل البشرية، فيدعو إلى السِّلْم العالميِّ، وهو يناقش قضية الحرب الذَّرية، ليس من المنظور الديني، فلا هو يتحاكم إلى «الضمير»؛ إذ إن الفلسفة الوضعية قد أفسدت حقيقة الضمير في منطق الكثيرين، كما لا يتحاكم إلى قِيم الخير والشر فهي ثابتة لا يماري فيها أحدٌ، إنما يتحاكم إلى ما تحقِّقه المصلحة المادية للمحْترِبين، وهذه المصلحة هي التي تحتِّم المناداة بالسلام وتجنُّب الحروب.

ويحمِّل الشيخ زعماء العالم مسئولية قيادة الإنسانية إلى مَهاوي الهلاك من أجل سفارات زائفة وأفكار مدمِّرة[٢].

---

(١) طبع بمطابع دار الكتاب العربي عام ١٣٨٢هـ (في ١٦ صفحة).

(٢) انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ١/ ٥٤١، ٥٤٢، بتصرف.

- **تفسير آيات الأحكام[١]:**

أَلَّفه بالاشتراك مع مجموعة من العلماء، واستنَد فيه إلى المذاهب الفقهية المختلفة غير المذاهب الأربعة، فجاء تفسيره لها شاملًا وِجْهاتٍ متعددةً[٢].

- **رسالة الأزهر في القرن العشرين[٣]:**

تتمثل رسالة الأزهر عنده في أن يفهَم الناسُ الدينَ على وجهه الصحيح، وأن يقدَّم -أي الدين- نقيًّا من التفسيرات الخاطئة، وفوق ذلك أنْ يُعْنَى الأزهر بأخلاق الأمَّة وتقاليدها. وبيَّن في الرسالة كذلك أسباب هَجْر التلاميذ للدرس[٤].

- **السر في انتشار الإسلام[٥]:**

رسالة كلَّفته بكتابتها جماعة كبار العلماء، أسهم به في مقاومة التبشير في مطلع ثلاثينيات القرن الماضي.

- **مشكلة اللغة العربية؛ لماذا أخفقنا في تعليمها؟ وكيف نعلِّمها:**

وهو الكتاب الذين بين أيدينا، وسيأتي الكلام عليه مفصَّلًا.

---

(١) صدر في أربعة أجزاء، وكان كل جزء يدرس لفرقة من فرق كلية الشريعة الأربع.

(٢) انظر: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ١/ ٥٢٨، ٥٢٩.

(٣) طبع سنة ١٩٤٥م بمطبعة السعادة (في ٤٨ صفحة).

(٤) انظر: الأزهر في ألف عام ٣/ ١٣.

(٥) طبعت بمطبعة النهضة بمصر، وترجمت فيما بعد إلى اللغتين الفارسية والصينية، انظر: الأزهر في ألف عام ٣/ ١٦٥.

- النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة[١]:

أشهر كتبه، ردَّ فيه على الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتاب «إحياء النحو»، الذي صدر عام ١٩٣٧م، وحمل دعاوى عريضة حول تيسير النحو، وغالى في تخطئة النحاة، ونسَبهم إلى التقصير في بيان خصائص العربية، وقَصْرِهم النحوَ على الإعراب، ونَحَلهم مذاهبَ لم يقولوا بها وبيَّن خَطَلها. فردَّ الشيخ محمد عرفة عليه[٢]، ودفَع هذه التُّهم التي طالت حتى سيبويه نفسه.

واشتمل كتاب «النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة» على: قضية العامية، وتطوير النحو، والمناهج الأدبية الغربية، وقضية البلاغة.

- نقض مطاعن في القرآن الكريم[٣]:

ردَّ فيه على ما ذكره د. طه حسين في المحاضرات التي ألقاها بكلية الآداب بالجامعة المصرية، والتي تأثر فيها عميد الأدب العربي بالمستشرق الفرنسي كازانوفا (P.Casanova) فيما كتبه عن القِسْم المكيِّ من القرآن الكريم[٤].

---

(١) طبع سنة ١٩٣٧ بمطبعة السعادة (في ٤٢٠ صفحة)، بتقديم فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر، ونشر مؤخرًا نشرة علمية عن مكتب إحياء التراث بمشيخة الأزهر.

(٢) عقد الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه «النحو الجديد» موازنة بين الكتابين، وكتب الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف في مجلة الرسالة، العدد (٢٤٤)، ٧ مارس ١٩٣٧م موازنة بينهما، وانظر بحث د. محمد الحسن مختار بلال، بعنوان «دور الأزهر في المحافظة على التراث النحوي والصرفي- الشيخ محمد عرفة أنموذجًا»، بحث غير منشور قدِّم إلى مؤتمر جامعة الأزهر بإيتاي البارود، أكتوبر ٢٠١٦م، ص ١٤-٣٨.

(٣) نشر في دار المنار بتقديم الأستاذ رشيد رضا عام ١٣٥١م، (في ١٥٨ صفحة)، انظر تصدير الأستاذ رشيد رضا ٣-٣٢.

(٤) من الجدير بالذكر أن د. طه حسين عدل عن هذه الآراء في كتابه (في مرآة الإسلام)، =

وما يزال أكثر كتبه بحاجة إلى الاعتناء بها وإصدارها في نشرات يراعى فيها قواعد النشر العلمي للنصوص (النشر النقدي).

وله العديد من المقالات بالصحف والمجلات (الأزهر، الرسالة، الهلال، الأهرام، المنار، منبر الإسلام، المصري)، التي تتناول موضوعات: اللغة العربية والنحو والأدب والنقد والبلاغة والفلسفة الإسلامية وقضايا التشريع الإسلامي، والتعليم والإصلاح، وقد ردَّ في بعضها على المستشرقين ونقد أخطاءهم فيما كتبوه في «دائرة المعارف الإسلامية»[١]، وحمَل بعضُها الطابعَ الاجتماعيَّ الإصلاحيَّ، والدفاعَ عن الإسلام وحضارته وتاريخه وأعلامه[٢]، وعن الشخصية المسلمة وهويتها، وحمل بعضُها الدعوةَ إلى الإخاء بين المسلمين، والتمسك بجوهرِ العقيدةِ الإسلاميةِ الصافيةِ، والتعاون بين الإسلام والغرب، والدفاع عن الأزهر والدعوة إلى إصلاحه[٣]، بالإضافة إلى موضوعات في الثقافة الإسلامية عامَّةً.

وكانت محاضراته بجمعية الهداية - التي كان فضيلة الشيخ محمد الخضر

= راجعه، وراجع كذلك: النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ١/ ٥٣١.

(١) أفاد مترجمو الموسوعة من هذه النقدات، وترجمت ملحوظات الشيخ إلى عدَّة لغات أجنبية. انظر نقداته في: مجلة الأزهر، المجلد (٥)، ص ٥٦٠.

(٢) انظر مقاله بمجلة الأزهر، المجلد (١٥)، ص ٦٣٩، الذي يدافع فيه عن أبي هريرة راوية الإسلام.

(٣) راجع مقاله: «الإصلاح الحقيقي والواجب للأزهر والمعاهد الدينية»، مجلة المنار، شوال ١٣١٥هـ، وراجع أيضًا ردَّه على الأستاذ أمين الخولي (ت ١٣٨٥هـ) فيما نعاه على الأزهر من تأخره في أداء رسالته، وانظر: الأزهر في ألف عام ٣/ ٥٢، ١٦١.

حسين شيخ الجامع الأزهر (ت ١٣٧٧هـ) رئيسها، وكان هو وكيلًا لها - تحمل طابع التوجيه الديني والثقافي للشَّبيبة، وكذلك كانت أحاديثه بالإذاعة تقدم الحلول لمشاكل الشباب الاجتماعية والدينية.

معاصروه وقرناؤه:

كان الشيخ محمد عرفة معاصرًا لطبقة من الشيوخ والعلماء المبرِّزين في العلوم المختلفة، منهم: الشيوخ محمد إبراهيم السمالوطي (ت ١٣٥٣هـ)، محمد بخيت المطيعي (ت ١٣٥٤هـ)، علي بن سرور الزَّنْكَلوني الحسَني (ت ١٣٥٩هـ)، عبد المجيد اللبان (ت ١٣٦١هـ)، إبراهيم الجبالي (ت ١٣٧٠هـ)، يوسف المرصفي (ت ١٣٧٠هـ)، وغيرهم من العلماء الفضلاء.

وعاصر نحو خمسة عشر شيخًا للأزهر- وهو ما لم يتحقق لكثيرين - فكان أول شيخ للأزهر أدركه الشيخ محمد عرفة في صباه هو فضيلة الشيخ علي الببلاوي (ت ١٣٢٣هـ). وآخر شيخ للأزهر أدركه الشيخ محمد عرفة كان فضيلة الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج (ت ١٣٩٥هـ).

تلاميذه:

تصدَّر الشيخ محمد عرفة للإفادة والتوجيه وأفاد منه جيل من الدارسين والمتعلِّمين الذين تخرَّجوا به وصاروا علماء وتصدَّروا، ومن أبرز تلاميذه:

- د. محمد عبد المنعم خفاجي (ت ١٤٢٧هـ)[1].

---

(١) ولد محمد عبد المنعم خفاجي بإحدى قرى مركز المنصورة من أعمال مديرية =

- د. أحمد فهمي أبو سِنَّة (ت ١٤٢٤هـ)[1].

وفاته:

بعد حياةٍ حافلةٍ قضاها الأستاذ الشيخ محمد عرفة في خدمة الإسلام

= الدقهلية عام ١٩١٥م، لأسرة تنحدر إلى قبيلة عربية حجازية هي «بنو خفاجة». والتحق بمعهد الزقازيق الأزهري عام ١٩٢٧م وتخرج فيه عام ١٩٣٦م، وحصل على العالمية من درجة أستاذ في الأدب والبلاغة (تعادل الدكتوراه الممتازة «أ»). تأثر بآراء فضيلة الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الأزهر (ت ١٣٨٠هـ)، في الثقافة والفكر والإصلاح. وهو أحد الذين ملكوا ناصية اللغة والبيان في القرن العشرين، وله جهود في إصلاح الأزهر.

كان غزير الإنتاج الفكري، ومن أبرز مؤلفاته: الأزهر في ألف عام، الحياة الأدبية في مصر في العصر المملوكي والعثماني، التراث الأدبي في التصوف الإسلامي، قصة الأدب في مصر، فضلًا عن النصوص الكثيرة التي حققها، والرسائل العلمية التي أشرف عليها وناقشها (نحو ٣٠٠ رسالة علمية). توفي في صفر ١٤٢٧هـ/ مارس ٢٠٠٦م. انظر ترجمته لنفسه في: الأزهر في ألف عام ٣/ ٤٧٧-٤٨٩.

(١) عالم بالفقه والأصول حنفي المذهب، ولد بالجيزة عام ١٩٠٩م، والتحق بالأزهر عام ١٩٢١م، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٤٠م، ودرَس بكلية الآداب بالجامعة المصرية، ومن شيوخه: فضيلة الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الأزهر، والشيوخ: أحمد عبد السلام، حامد جاد، محمد عبد الفتاح العناني، يوسف المرصفي، والأساتذة: إبراهيم مصطفى، وأحمد أمين، وأمين الخولي، وأحمد الشايب. ودرَّس بالعديد من الجامعات العربية بسورية والعراق وليبيا والسعودية، ونال عضوية مجمع البحوث الإسلامية ومجمع الفقه الإسلامي بجدَّة، وله العديد من المؤلفات في الفقه والأصول والاقتصاد الإسلامي، أبرزها: العرف والعادة في رأي الفقهاء، وهي رسالته التي نال بها العالمية، وتعد أول رسالة أكاديمية تحوز لقب «العالمية». انظر ترجمته لنفسه فيما أملاه على الأستاذ ناصر محمود وهدان، ونشرته مجلة الأزهر في عدد صفر ١٤١٠هـ/ سبتمبر ١٩٨٩م، وما كتبه عنه تلميذه صالح بن زابن المرزوقي بمجلة مجمع الفقه الإسلامي، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص ٢٣٨- ٣٤٥.

والدفاع عنه، مقاومًا التبشير والإلحاد، وداعيًا إلى الفضيلة والتمسك بالقيم، رادًّا على المستشرقين مَزاعمَهم وتُرَّهاتهم، مدافعًا عن الأزهر داعيًا إلى إصلاحه وإصلاح التعليم فيه، ومدافعًا عن العربية وتراثها، ناشدًا لها الخلود والانتشار، لقي ربَّه يوم الأربعاء ٦ من ذي الحجة ١٣٩٢هـ/ ١٠ يناير ١٩٧٣م[١].

❋ ❋ ❋

(١) في جمهرة أعلام الأزهر الشريف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين ٦/ ٢٣٩، أن وفاته كانت الثلاثاء ٥ من ذي الحجة ١٣٩٢هـ/ ٩ يناير ١٩٧٣م.

الأزهر والعناية بفهم النصوص:

كانت الدراسة في الأزهر -وما تزال- تُولي فَهْم النصوص عنايةً خاصةً؛ إذ كان يخصَّص لها قسطٌ كبيرٌ من الوقت؛ ذلك أن فَهْم النصوص يوفر الزمن ويعين في البحث ويساعد في الاستنتاج، ويُجْدِي عند الاستقلال بالعمل والتصدِّي للتدريس، ويُحيل إلى أخْذ العلم من منابعه، وها هو الشيخ محمد عرفة يوضح ذلك فيقول: «رحم اللَّه شيوخ الأزهر؛ فقد كانوا أعلمَ بما يحتاج إليه الباحث في حياته العلمية، وأعلم بأن فهْمَ النصوص هو الأمر الذي يجب أن يبدأ به الباحث، وهو أول خطوة يجب أن يخطوها»[1].

ولا أدلَّ على عناية الأزهر بفهم النصوص -بخلاف نهج الدراسة في الجامعة المصرية- من كون الأستاذ إبراهيم مصطفى -على جلالة قدره- ظلَّ سبع سنين يعاني البحث؛ كي يُنْجِز مؤلَّفه «إحياء النحو»، بَيْنا الأستاذ عرفة يتكفَّل بالردِّ عليه فيؤلِّف «النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة» في العام نفسه الذي صدر فيه «إحياء النحو»، عام ١٩٣٧م.

وهذا يعكس ما للدرس الأزهريِّ للنصوص وفهمها من أثر في تكوين ملَكة فهْم النصوص، على نحو ما نرى عند الشيخ محمد عرفة؛ فهو يقرأ ما يقرأ غيره لكنه يصل إلى اللُّبِّ منه ويخرج بنتائجَ لا يصل إليها غيرُه!

معالم منهج أزهري هادٍ:

يعدُّ الردُّ العلميُّ الذي كتبه الأستاذ الشيخ محمد عرفة في مؤلَّفه «النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة» - الذي قدَّم له فضيلة الشيخ محمد مصطفى

---

(١) النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة: ٧٢.

المراغي شيخ الأزهر- يردُّ فيه على الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه «إحياء النحو»، أحد معالم المنهج الأزهري في إدارة الجدَل العلميِّ الهادف، الذي تتجلَّى فيه أخلاقياتُ العلم؛ فها هو الشيخ يُعْنَى بنقد المكتوب وليس نَقْد الكاتب، مع عفَّة القلم واللسان[١]، فلم يعرِّج في نقده على شخص الأستاذ إبراهيم مصطفى، وإنما عُني بنقد آرائه وكلامه، ومع نزاهته في الغرض وصراحته في الحق، دون اختيالٍ أو شططٍ في الخصومة، أو جنوحِ العلمِ- كان ملتزمًا بما تقضي به كرامة العلم والخلقِ الحميد[٢].

ولم يأت ردُّ الشيخ محمد عرفة من باب التعصب للأزهر ولا للنحو والنحاة فحسب، بل إنها مساجَلة علمية تكشف عن عالم بأصول النحو وفروعه وفهم بنائه وفلسفته، ومباحث القياس والعلة. . . إلخ.

وقد أثرى هذا الجدَلُ العلميُّ الحَراك المعرفيَّ في تلك الفترة، وكان له أثرُه الممتدُّ، فيما بعد، في الدرس اللغوي في النصف الثاني من القرن العشرين، حتى لدى أولئك الذين درسوا علم اللغة والألْسُنية، وتأثروا بمناهج البحث اللغوي والمدارس اللغوية الحديثة.

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر: جمهرة أعلام الأزهر الشريف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين ٦/ ٢٣٨.

(٢) راجع مقال الأديب محمد فهمي عبد اللطيف في مجلة الرسالة، العدد (٢٤٤)، ٧ مارس ١٩٣٨م.

موضوع الكتاب

نعرض فيما يلي لمادة الكتاب وموضوعه، وصداه لدى العلماء والجمهور، ويسبق ذلك سردٌ تاريخي لما أُلِّف في تيسير النحو واللغة في العصر الحديث خلال القرن الماضي.

قضية تيسير النحو واللغة في العصر الحديث:

يحسن بنا قبل التصدي لبيان مادة الكتاب وموضوعه، أن نعرِّج إلى قضية تيسير النحو واللغة وتاريخها في العصر الحديث، ونرصد حركة التأليف فيها، بقَطْع النظر عن المصطلحات التي استخدمها أصحاب محاولات التيسير: «تيسير، تجديد، تقريب، تطوير، تحرير، إصلاح ... إلخ»، وقبل ذلك نذكر طرفًا عن دور الأزهر وأسبقيته التاريخية في قضية التيسير.

الأزهر وتجديد النحو:

شهد القرن التاسع عشر بداية التطور في علوم اللغة العربية وكان أول من نادى بهذا التطور الشيخ حسن العطار (ت ١٢٥٠هـ)، الذي تأثر به تلميذه الشيخ رفاعة الطهطاوي (ت ١٢٩٠هـ)، في كتابه «التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية»[1]، وهو رسالة رتَّبها في ١٥ بابًا، سهلة العرض بسيطة

---

(١) طبع سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م، وطبع بدار المعارف سنة ١٩٨٣م، ضمن كتاب «رفاعة الطهطاوي ووقفة مع الدراسات اللغوية الحديثة مع تحقيق نص كتابه التحفة المكتبية»، إعداد وتحقيق د. البدراوي زهران. وقد دارت حول الكتاب عدَّة دراسات، =

العبارة، تأثر فيها بنمط تأليف الفرنسيين في قواعد لغتهم، وكان أول من استخدم الجداول الإيضاحية في كتب النحو العربي[١].

وتعد محاولته هي الأولى لعرض النحو العربي عرضًا حديثًا، بعيدًا عن المتون والشروح[٢]، وهي أهم المحاولات التي حرصت على نهضة اللغة ونادت بتجديد النحو، وتعد بداية حركة إصلاح الكتاب النحوي، وكان الكتاب مرشدًا لمن ألَّفو بعده.

وقد ظلَّ النحو العربي - من حيث موضوعاتُه وطرائقُ تدريسه- يعلَّم على أنه «علم تعليم صناعة القواعد النحوية وتعلُّمها»، وهذا ما أدَّى -على مرور الزمن- إلى النُّفور من دراسته والعزوف عن تعلُّمه، وضَعْف الناشئة بصفة عامة؛ ولذلك ظهرت محاولات كثيرة، في العصر الحديث لتيسيره، من أولاها محاولة الشيخ أحمد محمد المرصفي (ت ١٣٠٦هـ)، في كتابه «تقريب فن العربية لأبناء المدارس الابتدائية»، ثم محاولة الشيخ حسين المرصفي (ت ١٣٠٧هـ)، في «الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية»[٣]، وفي

= منها: جهود رفاعة الطهطاوي النحوية واللغوية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة المنيا، ١٩٩٧م، لأسامة عطية عثمان. منهج رفاعة الطهطاوي النحوي في ضوء كتابه التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية، لمحمد كشاش، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، عدد (٧٢)، خريف ٢٠٠٠م، ص ٨- ٣٩، دراسات نحوية في رسالة «التحفة المكتبية» للدكتور أحمد محمد الصغير الأستاذ بكلية دار العلوم، جامعة المنيا.

(١) انظر: علم اللغة العربية لمحمود فهمي حجازي ص ٩٤.

(٢) انظر: العربية وعلم اللغة البنيوي لحلمي خليل ٥٩، ٦٠.

(٣) صدر بين سنتي (١٢٨٩، ١٢٩٢هـ)، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب =

عام ١٨٨٧م أصدر الشيخ حفني ناصف (ت ١٣٣٧هـ) وزملاؤه كتاب «الدروس النحوية لتلاميذ المدارس الابتدائية»، وأتبعوه سنة ١٨٩١م بكتاب « الدروس النحوية لتلاميذ المدارس الثانوية»، خلَّص فيها القواعد في صورة سهلة في التقسيم، دون إغراق في التأويلات والتعليلات.

وفي نحو سنة ١٩٢٧م ألَّف الأستاذ علي الجارم (ت ١٣٦٨هـ)، والأستاذ مصطفى أمين سلسلة «النحو الواضح»، التي نالت شهرة واسعة وحققت نجاحًا كبيرًا على المستوى التعليمي، وما زالت تحتفظ بهذه الشهرة حتى الآن؛ لعنايتها بالأمثلة وتحليلها، ثم استنتاج القاعدة، مع الاهتمام بالتطبيقات.

وفي عام ١٩٢٩م أصدر الأستاذ مرسى مصطفى الحميدي كتابه «النحو الحديث»، وأصدر الأستاذ زكي المهندس وآخرون كتاب «النحو المصوَّر»، وتميز هذان الكتابان باستخدام الصور الإيضاحية لأول مرَّة في تاريخ التآليف النحوية[١].

ثم شكِّلت وزارة المعارف سنة ١٩٣٠م لجنة لتيسير قواعد النحو والصرف، تلتزم بأصول اللغة، وتتخذ من مذاهب القدماء أيسرَها على الناشئة، وخلَصت اللجنة إلى مقترحات تتعلَّق بالقواعد الشائعة في الاستعمال، وتهوِّن من أمر الإعراب على المتعلِّمين.

= عام ١٩٩١م، بتحقيق د. عبد العزيز الدسوقي، وصدر أخيرًا في تحقيق جيد وحلة قشيبة عن دار المنهاج سنة ٢٠١٩م، في أربعة مجلدات.

(١) انظر: معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها ص ١٢٢، تيسير النحو التعليمي ٢٦- ٢٧، في إصلاح النحو العربي ٥٩-٧٤.

وفي عام ١٩٣٦م أصدرت لجنة من وزارة المعارف كتاب «تكوين الجُمَل» للمرحلة الابتدائية[١].

وجاءت محاولة الأستاذ إبراهيم مصطفى سنة ١٩٣٧م في كتابه «إحياء النحو»، وهي محاولة جريئة لم تصل إلى غايتها من إحياء النحو وإصلاحه وتجديده كما تغيَّت[٢]. وقد أثار الكتاب ضجَّة كبيرة، وردَّ عليه غير واحدٍ[٣]، منهم الأستاذ محمد عرفة في كتابه «النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة».

ثم ألَّفت لجنة من وزارة المعارف على رأسها د. طه حسين وآخرون عام (١٩٣٨م): كتابَ: «تيسير قواعد تدريس اللغة العربية». كما نشر الشيخ عبد المتعال الصعيدي في العام نفسه ست مقالات بمجلة الرسالة، حملت عنوان: «تيسير قواعد تدريس اللغة العربية».

ثم نشر الأستاذ يعقوب عبد النبي عام (١٩٤١م) كتابه «النحو الجديد»، ومحاولته هذه تنتمي إلى المنهج اللغوي الحديث، وقدَّم مقترحات جديدة لإصلاح النحو، مع التطبيق على أبواب النحو. وألقى الأستاذ أمين الخولي محاضرة في الجمعية العراقية الملَكية عام (١٩٤٢م)، بعنوان «هذا

---

(١) انظر: في إصلاح النحو العربي ٧٤.

(٢) انظر: نحو التجديد في دراسات د. الجواري، ص ٢٣.

(٣) رد عليه: د. أحمد بدوي، الشيخ مرسي جار اللّه الروسي، الشيخ عبد المتعال الصعيدي، الشيخ محمد الخضر حسين، د. مهدي المخزومي، د. أحمد عبد الستار الجواري. انظر: في إصلاح النحو العربي للدكتور عبد الوارث مبروك سعيد: ٩٩.

النحو»، ونشرت بمجلة الآداب، المجلد السابع، عام (١٩٤٤م)، وضمَّنها فيما بعد كتابه «مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب»[١].

وفي عام ١٩٤٥م عرض على مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قرارات لجنة وزارة المعارف التي شكلت عام ١٩٣٨م، فأضاف إليها تعديلات وصدرت فيها قرارات[٢].

وفي عام ١٩٤٧م نشر الشيخ عبد المتعال الصعيدي كتابه «النحو الجديد»، الذي تعرَّض فيه للمحاولات السابقة، وختمه بقواعد النحو الجديد وهي عبارة عن إعرابٍ لأبواب المرفوعات والمنصوبات والمجرورات[٣]. وفي العام نفسه دعا د. شوقي ضيف في مقدمة كتاب «الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢هـ)، إلى إلغاء نظرية العامل، وإلغاء الإعرابين التقديري والمحلِّي، وتضمنت مقدمته أُسس تجديد النحو العربي من وجهة نظره[٤].

وقدَّم الأستاذ أمين الخولي في مؤتمر المستشرقين الذي عقد بإسطنبول عام ١٩٥١م، بحثًا بعنوان «الاجتهاد في النحو».

ثم نشر أنيس فريحة عام ١٩٥٥م كتابه «نحو عربية ميسَّرة». وفي عام

(١) انظره ص ١٧-٦٥.

(٢) انظر: محاضر جلسات الدورة السابعة والثلاثين عام ١٩٧١م، ص ٢٤٢، تيسير النحو التعليمي ٣٩-٤٨.

(٣) انظر: النحو الجديد ٢٣٧-٢٦٥.

(٤) انظر: مقدمة تحقيق كتاب الردّ على النحاة ٤٧-٧٦.

١٩٥٧م صدر كتاب «الاتجاهات الحديثة في النحو»، وهو مجموعة محاضرات أُلقيت في مؤتمر مفتِّشي اللغة العربية الذي نظمته مدرسة الفسطاط الثانوية بمصر القديمة عام ١٩٥٧م. وفي عام ١٩٥٨م نشر الأستاذ محمد أحمد برانق «النحو المنهجي»، وفي العام نفسه نشرت دار المعارف كتاب «تحرير النحو العربي»، لمجموعة مؤلِّفين، وتضمن قواعد النحو مع التيسير الذي قرَّره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

ونشر الأستاذ أمين الخولي عام (١٩٦١م)، كتابه «مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب». ونشر د. أحمد مطلوب عام ١٩٦٣م بمجلة المعلم الجديد ببغداد «نحو التيسير».

ثم نشر د. مهدي المخزومي عام ١٩٦٤م كتابه «في النحو العربي، نقد وتوجيه»، وفي عام ١٩٦٦م نشر كتابه الآخر «في النحو العربي، قواعد وتطبيق على المنهج العلمي الحديث».

ويدخل ضمن محاولات التيسير كتاب «النحو الوظيفي» للأستاذ عبد العليم إبراهيم (ت بعد ١٣٩٥هـ)، وهي محاولة خاصة بالجانب التربوي في النحو العربي، ويعد كتابه من مؤلَّفات النحو التعليمي الميسَّر.

وفي عام ١٩٧٢م نشر د. محمد كامل حسين كتابه «اللغة العربية المعاصرة»، دعا فيه إلى وضع نموذج جديد للغة العربية طبقًا لمستوى لغوي غير الذي حدَّده القدماء.

وفي عام ١٩٧٧م قدَّم د. شوقي ضيف لمجمع اللغة العربية بالقاهرة مشروعًا لتيسير النحو تضمَّن الأسس التي ذكرها في مقدمة تحقيقه لكتاب

«الرد على النحاة» لابن مضاء القرطبي، وأضاف إليها، وقد أقرَّ المجمع جزءًا منها عام ١٩٧٩م مع بعض التعديلات[١].

وفي عام (١٩٨٢م) نشر د. شوقي ضيف كتابه «تجديد النحو». وفي عام ١٩٨٦م نشر «تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده»، وكتاب «تيسيرات لغوية».

ونشر د. أحمد عبد الستار الجواري عام ١٩٨٤م «نحو التيسير، دراسة ونقد منهجي».

وقد عرض لهذه المحاولات وناقشها باستفاضة د. عبد الوارث مبروك سعيد في كتابه «في إصلاح النحو العربي؛ دراسة نقدية»، الذي صدر عام ١٩٨٥م. فضلًا عن المؤتمرات والندوات والمحاضرات التي عقدت بمشرق العالم العربي ومغربه.

وللمجامع اللغوية العربية جهود محمودة في قضية تيسير النحو العربي، ويأتي على رأسها مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الذي انطلق من أن التيسير الذي يؤدي إلى تغيير في جوهر اللغة، ليس تيسيرًا، وفيما أقرَّه وأجاز استعماله من أساليب لغوية[٢]. وقد نالت هذه الجهود حظًّا من الدرس والبحث[٣].

---

(١) نشر هذا المشروع في كتاب أصول اللغة ٣/ ١٩٧-٢٢٥. (نشرة مجمع اللغة العربية بالقاهرة).

(٢) راجع مجموعة القرارات العلمية في خمسين عامًا، مجمع اللغة في خمسين عامًا، مراجعة محمد شوقي أمين، إبراهيم الترزي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، في أصول الجزء الثالث، أخرجه مصطفى حجازي، ضاحي عبد الباقي.

(٣) من هذه الدراسات على سبيل المثال: أعمال مجمع اللغة العربية، مناهج ترقية اللغة العربية تنظيرًا ومصطلحًا ومعجمًا، للدكتور محمد رشاد الحمزاوي، دار الغرب =

وقد اتجهت هذه المحاولات على اختلاف غاياتها -العلمية والتربوية والاجتماعية- بصورة عامة إلى دراسة النحو من خلال منهج جديد يقوم على وصف الظواهر اللغوية، دون الخوض في التأويل والتعليل، مع الاستنارة بجهود القدماء مثل ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، وابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢هـ)، ودارت حول إلغاء بعض الأبواب أو الاستبدال الاصطلاحي لبعضها، إعادة تنسيق بعض الأبواب النحوية.

ولم تؤتِ جهود أصحاب هذه المحاولات التي نادت بتيسير النحو العربي ثمارها، ولم يقدم أصحابها قواعد معيارية أسهل وأيسر؛ لافتقار أكثرها إلى النظرة العميقة إلى النحو العربي، فلم تصل إلى جوهره، كما أنها تجافي منطق اللغة وفلسفتها، وجاءت تصوراتهم عن فكرة التيسير قاصرة، لذلك وقع أصحابها في أخطاء كثيرة، كما أن أولئك الذين دعوا إلى تطبيق مناهج علم اللغة الحديث، لم يكن لهم تأثير واضح في دراسات أصحاب دعوات تيسير النحو العربي وإصلاحه. ولم تقدم هذه المحاولات أيضًا على صعيد الكتب الدراسية أي تيسير يذكر، اللَّهم إلا في الناحية الشكلية.

ورغم النقود التي وجِّهت إلى النحو العربي، لم يستطع النحاة المعاصرون ولا اللسانيون أن يأتوا بـ«نحو تعليمي» بديل عن النحو العربي المعياري، لكن اللسانيات يمكن أن تفيد في تعليم اللغات للناطقين بها أو بغيرها، بفضل ما

= الإسلامي ١٩٨٨م، مظاهر التجديد النحوي لدى مجمع اللغة العربية في القاهرة حتى عام ١٩٨٤م، للدكتور ياسين أبي الهيجاء، تيسير النحو في منظور المجامع اللغوية «المجمع اللغوي السوري نموذجًا»، لجيلالي بوترفاس، أطروحة ماجستير نوقشت بكلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.

ابتكرته من طرائقَ نافعة إن أحسِن استخدامها[١]، ويتجلَّى هنا سبْق فكْرِ الشيخ محمد عرفةَ الدرسَ اللسانيَّ الحديثَ؛ إذ إنه دعا إلى هذا قبل خمسة وسبعين عامًا!

ويمكن القول: إن إصلاح النحو يحتاج إلى إطار يخفف من أعباء دارسيه، وخاصة لدى أجيال ضعفت ملكتهم، وغابت السَّليقة لديهم.

مادة الكتاب وموضوعه:

يحمل كتاب «مشكلة اللغة العربية؛ لماذا أخفقنا في تعليمها؟ وكيف نعلِّمها؟» للشيخ الأستاذ محمد عرفة طابع الإصلاح من خلال ما يقدمه من معالجته لمشكلةٍ معضلةٍ، هي «تعليم اللغة العربية وتعلُّمها»، ويقف على أسباب الإخفاق في تعليمها، ويعزوها إلى طريق تعلميها التي كانت سائدة في مدارس الشرق ومعاهده في عصره، وإلى قواعد اللغة نفسها، ويقترح منهجًا جديدًا في تعليم اللغة عامَّة واللغة العربية خاصَّة، وهو منهج طبيعي (فِطْري) يجب أن تَسْلُكه هذه المدارس والمعاهد، ويتناول قضية تيسير النحو واللغة، وينقُدها، وهو ممن يؤمنون بضرورة تيسير علوم اللغة؛ إذ التيسير ظاهرة من ظواهر التطور اللغوي، لكن الشيخ ينطلق من قواعد تخالف دعاة التيسير والتجديد[٢]؛ إذ التيسير عنده يكمن في ضرورة عرض

---

(١) للاستزادة راجع كتاب «توظيف اللسانيات في تعليم اللغات»، للدكتور رضا الطيب الكشو، مجمع اللغة العربية على الشابكة، مكة المكرمة ١٤٣٦هـ.

(٢) انظر صـ: ٥٨، أما مقترحات الآخرين فكانت بعيدة عن روح النحو ومخالفة لمنطق اللغة، وانطلقت من مفاهيم وتصورات قاصرة عن فكرة التيسير نفسها.

النحو بطريقة تقرِّبه من طبيعة المتكلِّمين باللغة، وتكشف عن سرِّ العربية، على نمط قويم[١].

ويدعو الشيخُ إلى الأخذ بالعلم في إصلاح أساليب التعليم والتربية والاجتماع والاقتصاد -بَلْهَ السياسة- وأساليب المعاش، والإفادة منه في حلِّ مشكلاتنا العلمية والعقلية أيضًا، والانتفاع من تراثنا بصورة أفضَل[٢]؛ لذلك فهو يستصحِب رأي العلم؛ كي تجد دعوته سبيلًا إلى تطبيقها[٣].

وأصل الكتاب مقالات عشر نُشِرت تباعًا بـ«مجلَّة الرسالة»[٤]:

تناولت المقالة الأولى الطرائق التي كانت سائدة في تدريس اللغة العربية في عصر المؤلِّف وأساليبها، والأسباب الموجِبة للاحتفاظ باللغة؛ وهي أسباب دينيَّة واجتماعيَّة وتاريخيَّة، وتشير إلى ضرر استبدال العامية بالفصحى أو العكس، وإلى خطر اصطناعِ لغةٍ بينهما.

وتتناول المقالة الثانية الأسبابَ الحقيقيةَ في تعليم اللغة العربية، ومنها غَزْوُ العامية قاعاتِ الدرسِ، وغَلَبتُها الفصحى في التحدُّث، وتحدُّث المعلمين بها، وضَعْفَ مستوى الخريجين في الكتابة والنُّطْق والإعراب[٥].

---

(١) راجع ما كتبه الأديب الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف في مجلة الرسالة، العدد (٢٤٤)، ٧ مارس ١٩٣٨م.

(٢) انظر: صـ ٥٠، ٥١، ٥٢ من الكتاب.

(٣) انظر: صـ ٦٥-٧٣ من الكتاب.

(٤) الأعداد (٥٢٨)، (٥٢٩)، (٥٣٠)، (٥٣١)، (٥٣٢)، (٥٣٣)، (٥٣٦)، (٥٣٧)، (٥٣٨)، (٥٤٠)، ثم طبعت فيما بعد بمطبعة الرسالة.

(٥) انظر ص ٦٥، ٦٦ من الكتاب.

وبعد أن ينقُد المؤلِّف طريقةَ تعليم العربية في مدارس الشرق ومعاهده، وينقد قواعد اللغة نفسها ويبيِّن سبب نفور التلاميذ منها، ويبين ما حرِّف منها وبُدِّل، وما هو صحيح لكنه جرِّد من عِلَله الصحيحة، وأُلقي إليهم جافًّا خلوًّا من التعليل، وينْعَى على الأمَّة تقليد الآخر دون تبصُّرٍ واختبار- يَعْمَد في المقالة الثالثة إلى أسلوب مستمدٍّ من حياتنا وبعض علومنا، يوضح رأي العلم فيه[١]، وهو أسلوب المران والتكرار والدُّرْبة[٢].

ويعتمد في أسلوبه الذي يقترحه لإصلاح طريقة تعليم اللغة العربية، على خصائص العربية نفسها وطبيعتها، ويشير إلى الفكرة المحورية التي يدور عليها الكتاب؛ وهي أن اللغة مَلَكة لا تحصل إلا بالمران الدائم والتكرار الملحِّ، وأن استظهار القواعد دون المِران على قراءةِ النصوص الأدبية، لا يُجْدِي فتيلًا في تكوين هذه الملكة[٣]، وأنه إذا أراد الأساتذة أن يوجِدوا هذه الملَكة فلا بدَّ من الإكثار من الشواهد المناسِبة، وأن يحرصوا على تهيئة فصول سهلة لكبار الأدباء تكون زادًا للطلاب، ومشوقةً لهم، تدفعهم إلى الاستيعاب في شَغْف حين تنحو منحى الشعر السَّلِس أو القصة الطريفة أو الخطبة المؤثِّرة[٤].

إذًا فأسلوب الفطرة في تعليم اللغات هو المران والتكرار، والشيخ محمد عرفة يعوِّل عليه في تعليم اللغة العربية[٥].

---

(١) انظر صـ ٧٣، ٧٤.

(٢) انظر صـ ٧٩-٨١، ٨٤، ٩١-٩٣.

(٣) انظر صـ٧٣، ٧٥-٨٣.

(٤) انظر صـ ٨٠.

(٥) انظر صـ٨١-٨٣.

ويبرهن في المقالة الخامسة على أن محاكاة الفطرة في تحصيل الملَكة اللغوية، هي الطريق الصحيح لتعليم اللغة، ويُسْهِب في الكلام على الملَكَة، ويحذِّر من الاقتصار في المحفوظات على مقرَّرات الدراسة فقط، ويدعو إلى انتخاب نصوص جيدة من دواوين الأدب ومن الشعر العفيف يحفظها الطلاب في جميع مراحل التعليم[1].

ويوازن في المقالة السادسة بين تلقِّي اللغة عن طريق المشافهة وتلقِّيها عن طريق القواعد، ويدعو صراحة إلى تجريب طريقته في تعليم اللغة بدلًا من طريقة القواعد التي أثبتت فشلها، يقول: «يا قوم، قد جرَّبتم طريقة القواعد في تعلُّم اللغة العربية ألْفَ مرَّةٍ، وفي كلِّ مرة تُخْفِقون، فجرِّبوا مرَّةً واحدةً طريقةَ الحفظ والتكرار، وأنا كفيلٌ لكم أن تحمَدوا هذه التجرِبة»[2].

ويوضح في المقالة السابعة جَدْوَى الأخذ بطريقته ومنهجه الجديد في تعليم اللغة العربية، فإنه ينقذ التلاميذ من الرسوب، ويوفر على أولياء أمورهم النفقات التي يتكلَّفونها في تعليم أبنائهم، ويوضح كذلك أنه على الرغم من خصوصية اللغة العربية، لا فرْقَ بينها وبين غيرها في الإفادة من طرق التعليم وأساليبه الحديثة.

ولإيمان الشيخ بـ«طريقة النصوص» في تعليم اللغة العربية، ينصح في المقالة الثامنة باقتصار التعليم الابتدائي على الاستكثار من المطالَعة ودروس المحفوظات المناسِبة لأذهان التلاميذ في هذه المرحلة، وكذلك

(١) انظر صـ ٨٠، ٨١، ٨٥.

(٢) انظر صـ ٩١.

الأمر في التعليم الثانوي مع إضافة قواعد اللغة بالقَدْر الضروريِّ، مدلِّلًا على جَدْوَى مذهبه بطريقة الأوَّلين في الإكثار من الشواهد، والاهتمام بما تتضمَّنه صور التعبير والفكر[١]؛ لذلك فهو يَنْعَى على التلاميذ عدم حفظهم الشواهدَ والأمثالَ النحويةَ والصرفيةَ والبلاغيةَ[٢]. ومثل ذلك في التعليم العالي، مع التعمُّق في دراسة القواعد وفلسفتها، وممارسة الإنشاء والكتابة[٣].

ويشير في المقالة التاسعة إلى وقوف العامية في وجه تحصيل ملَكة اللغة الصحيحة، ويرى أنه إذا لم يكن من المستطاع خَلْق بيئة لغوية فصيحة في المدرسة، فلا بدَّ أن نخلق بيئة تحاول الابتعاد عن المبتَذَل من ألفاظ العامية.

وفي المقالة العاشرة يُرجِع أصولَ طريقته الجديدة في تعليم اللغة إلى الأوَّلين الذين كانوا يتوصلون إلى تحصيل ملَكة العربية عن طريقها؛ إذ إنهم لم يقتصروا على طريقة القواعد، بل لقد امتلأت كتبهم بالشواهد من المنثور والمنظوم، ومثَّل لذلك بـ «البيان والتبيين»، و«المثَل السائر»، ونقَل من أقوال البُلَغاء الذين كانوا يأخذون من القواعد ما يعين على فهم المنثور والمنظوم.

ونرى الأستاذ الشيخ محمد عرفة يسبق المناهج المتبَعة في الدراسات والبحوث الحديثة، فيأخذ عيِّنة عشوائية، على نحو ما نرى في الدراسات الميدانية، فيعقد موازنة بين طلابٍ يأخذون اللغة من الأساليب الصحيحة،

---

(١) انظر صـ ٦٧، ١٠٦.

(٢) انظر صـ ٨١.

(٣) انظر صـ ٨٦.

وطلابٍ آخرين يأخذونها من القواعد، ليثبت فائدة تلقِّي اللغة من الأساليب وجَدْواها في استقامة الألْسُن.

وكان القراء يترقَّبون هذه المقالات إبَّانَ كانت تنشر بمجلة «الرسالة»، ويتلقَّونها بالرضا والقبول، ويصفونها بـ«الإصلاح المنشود» الذي هو إحياءٌ للغة الفصحى وجَعْلُها مَلَكة يَلْهَج بها اللسان دون تكلُّفٍ، ويدعون الشيخَ عرفةَ إلى تناول قضية صعوبة الخط والكتابة لتيسيرهما أيضًا[١].

كما لقي الكتاب قبولًا بين العلماء، وخاصة اللغويين منهم، فأثنوا عليه في الصحف الأدبية والمجلات العلمية، وقد لخَّصه الأستاذ عبد القادر المغربي في مقال له بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق[٢]، وحثَّ فيه المدارس في بلاد المغرب على الأخذ بما فيه ليكتسِبوا ملَكةَ التكلُّم والكتابة باللغة العربية، كما أثنى على الشيخ محمد عرفة بقوله: «... ولم يَدُرْ بخَلَدنا أن يقوم أستاذٌ جليلٌ من جماعة كبار العلماء في مصر، وهو الشيخ محمد عرفة، فيتناول هذا الموضوع ويكتب فيه بلباقةٍ وحِذْق سلسلةَ مقالاتٍ بلغت العشرة، أجاد منها وأحسن في التنبيه والنصح كلَّ الإحسان[٣].

وتناولته بتحليل عميق معاصرته د. نفوسة زكريا سعيد في كتابها «تاريخ الدعوة إلى العامية وأثرها في مصر»[٤].

---

(١) انظر: مجلة الرسالة، العدد (٥٤٠)، ٨ نوفمبر ١٩٤٣م.

(٢) انظر: مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، العدد (٣-٤)، ١ مارس ١٩٤٤م.

(٣) المرجع السابق.

(٤) انظره ص ١٩٧- ٢٠٠.

وأخيرًا يمكن أن نقول مطمئنين:

إنه مما لا يخفى على ذي بصيرة أن التعليم الأزهريَّ قد صقَل الأذهان، وربَّى الملَكات، وقوَّم الألسنَ، وقد ظلَّ الأزهر واقفًا في ميدان العلم والثقافة شامخًا، محتفظًا بهيبته ومكانته ماضيًا في أداء رسالته لخدمة الدين واللغة العربية، وسيظلُّ سِياجًا لها ولعلومها، يوطِّدها ويمكِّن لها في بلده مصر وفي البلاد العربية والإسلامية.

❊ ❊ ❊

عملنا في نشر الكتاب

اعتمدنا في هذه النشرة مطبوعةَ الكتاب الذي صدر عام ١٩٤٥م، وأصول المقالات التي تضمَّنها الكتاب ونُشِرت تباعًا بمجلَّة «الرسالة»، وأشرنا إلى الفروق بينهما.

أمَّا المقدمة [مقدمة المؤلف] وعناوين: «الآمال التي ندركها من هذا الأسلوب»، «القواعد»، «أمنية»، فرجعنا في أصلها إلى مطبوعة الكتاب نفسه؛ إذ لا تشتمل عليها المقالات.

وعمَدنا إلى لفظ الكتاب فضبَطْناه وضَبَطْنا مصطلحاتِه وعَرَّفْنا بها وبالغريب، وفسَّرنا لغةَ المؤلِّف العاليةَ وقرَّبناها، وعلَّقنا على بعض القضايا التي اشتمل عليها الكتاب مما كان مرتبطًا بالفترة التاريخيَّة التي أُلِّف فيها، والتي تحتاج تأصيلًا تاريخيًّا وهي تقدَّم لقارئ اليوم؛ مثل الدعاوَى إلى اطِّراح الفصحى واصْطِناع عامية يكتب بها بدلَها، وكتابةِ

الفصحى بالحرف اللاتيني، ودعواتِ تيسير النحو وتجديده، وضَعْفِ التعليم، وغيرها.

وعَزَوْنا الآياتِ القرآنية، وخرجنا الأشعار ونسبناها إلى بحورها، وتَرْجَمنا الأعلام العربية والإفرنجية.

وقدمنا إضاءةً حول ملامح تفرُّد الشيخ محمد عرفة وسبْقه المدارسَ اللغْويةَ الحديثةَ، وبيان آرائه حول تجديد التراث ومَنْحاه فيه، ونقده العقل العربي قبل أن تتبلور الكتابات الفلسفية في ذلك بزمن طويل، وأخْذه بـ «منهج العيِّنة» - على نحو ما هو متَّبَع في الدراسات الحديثة - لدراسة مستوى متلقِّي اللغة بالقواعد ومتلقِّيها بالمشافَهة والحفظ والمِران والدُّرْبة، والموازنة بين النمطين، وكذلك دعوته إلى الإفادة من مناهج تعليم اللغات الأخرى في بيئاتها، وتوظيف ذلك في تعليم اللغة العربية.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدِّمة

أساليبُنا في الحياةِ -الموروثُ منها- احترامُنا إياه- عدمُ محاولةِ تغييرِه- عدمُ نقْدِه تحت ضوء العلم- عذْر المتقدِّمين في اصطناعِ هذه الأساليبِ- عدمُ عذرِنا- أخصُّ خصائصِ هذا العصرِ اعتزازُه بالعلمِ- الجديدُ من أساليبنا- تقليدُنا فيه دون بحثٍ- عدمُ استشارةِ العلمِ فيه- العزمُ على أن أستشيرَ العلمَ في أساليبِنا- البدءُ بأسلوبِ تعليمِ اللغةِ العربيةِ.

الحمدُ للَّه وسلامٌ على عبادِه الذين اصطفَى.

وبعد، ففي مصرَ وفي بلادِ الشرقِ الإسلاميِّ أساليبُ في التعليمِ والتربيةِ، وفي الاجتماعِ والسياسةِ والاقتصادِ، لو استُشِير فيها العِلْم لنادَى بإصلاحِها، ولو سِرْنا وراءه لأصلَحها، أو لهدانا إلى ما هو خيرٌ وأقومُ منها[١].

(١) عانى التعليم العام والتعليم الأزهري الضَّعْف في عصر الاحتلالِ الإنجليزي؛ إذ عمِل الاحتلال على تغريب الفكر الإسلامي وحَجْب مقوّماته، من خلال تغيير المناهج ومحاربة اللغة العربية، وإحلال الإنجليزية بدلًا منها لغةً للتعليم؛ ولذلك ظهرت دعوات لإصلاح التعليم الأزهري، ومراجعة الكتب الدراسية وتقويم طريقة التدريس، وتطبيق أساليب الدراسة القويمة التي تطَّرِح التلقينَ الذي لا يربي مَلَكة الفهم الصحيح، وتطوير طريقة الامتحانات. راجع في ذلك: تاريخ الإصلاح في الأزهر لعبد المتعال الصعيدي (مطبعة الاعتماد، ١٩٤٣م)، الصحيفة السوداء للشيخ محمود أبي العيون ٣٦، ٣٩-٤٠، الأزهر في ألف عام ٣/ ١٧٩-١٨١.

هذه الأساليبُ ترمي إلى غاياتٍ خاصةٍ وأغراضٍ معينةٍ، ولكنها لا تؤدي إليها، ولا تصِل بيننا وبين ما نَنْشُد من غاياتٍ وآمالٍ، وقد وَرِثْناها عنِ القدماء فيما وَرِثْناه، وعَكَفْنا عليها، فلم نحاول لها تغييرًا ولا إصلاحًا، وكان لآبائنا الأقدمينَ العذرُ في اصطناعِ هذه الأساليبِ؛ لأن ذلك كان مبلغَ علمِهم ومنتهَى جهدِهم؛ أما نحن فلا عذْرَ لنا؛ لأننا نعيش في عصرٍ أخصُّ خصائصِه وأوضحُ سِماتِه نضْجُ العقلِ البشريِّ، وبلوغُ المعرفةِ الإنسانيةِ غايةً كبيرةً في شتَّى ألوانِ المعرفةِ والثقافاتِ، وطموحُ عقلِ الإنسانِ إلى السَّيرِ إلى أبعدِ الغاياتِ في هذا السبيلِ، وقد حفَز تقدُّمُ العلومِ الناسَ إلى استغلالها في إصلاحِ أساليبِ حياتهم، وإلى الإفادةِ منها في خطواتهم إلى الإصلاحِ، ولكننا لا نستضيء في مشكلاتِنا العقليةِ والعلميةِ ولا فيما سواهما بضَوء العلمِ الصَّحيحِ؛ وكأننا نعيش في العصورِ الخالياتِ.

نكرِّر ما قال القدامَى ولا نَزيدُ فيه، ونأخُذه جملةً يختلط فيها المنتِجُ بالعقيمِ، والشوكُ بالثمرِ، وألِفْنا ذلك حتى ساغ في عقولِنا وأذواقِنا ما لا يُستساغ، ولم نفكِّر في شيء منه، ولم نَسْعَ إلى إصلاحِ ما لا بدَّ لليقظِ الطَّموحِ من إصلاحِه، كأنَّما نعتقِد أنه نظامٌ من أنظمةِ الكونِ، وسُنَّةٌ من سُنن الوجودِ، لا يَقْبَل تغييرًا ولا تبديلًا.

أقلُّ تفكيرٍ فيه يُنبئنا بعيوبه، وأقلُّ تفكيرٍ في هذه العيوبِ ينبئنا بوجوهِ إصلاحِها، ولكننا لم نفكِّر فيه، ولم نَدْرِ ما عَيْبُه؟ ولم نهتدِ إلى وجوهِ الإصلاحِ فيه، كأنَّما كُتب علينا أن نسيرَ في الحياة مُغْمِضي العيونِ، أو أن نبصِرَ بعيونِ مَن تَقدَّمونا، ونَسْمَع بآذانهم، فلا نرى إلا ما رأوا، ولا نَسْمَع إلا ماسمِعوا؛ ولو فكَّرْنا بعقولنا، ونظَرْنا بعيوننا، وسَمِعْنا بآذاننا، كما

فعَل من تَقدَّمونا، لأصلَحْنا تراثَنا، ونمَّينا علومَنا، ولَانتفَعْنا بهذه التَّرِكةِ التي خلَّفها لنا الآباء، ولورَّثْناها أبناءنا وأحفادَنا، وهي أنمى مما ورَّثَناها الآباءُ والأجدادُ.

هذا تقليدُنا الموروث، وليس طريقُنا المستحدَثُ بأحسنَ حالًا، ولا بأقومَ طريقةً، فلقد اقتبَسْنا بعضَ الأساليبِ فيما اقتبَسْنا من الأجانبِ المخالِطينَ لنا، ومن الأممِ التي ننظر إليها بعينِ الإكبارِ والإعظامِ، اقتبَسْناه وقلَّدنا فيه الأممَ الأخرى دون تبصُّرٍ أو اختبارٍ، ودون أن ننظرَ فيه لنرى أصالحٌ أم فاسدٌ، أموافقٌ لمزاجِنا النفسيِّ أم غيرُ موافِقٍ؛ حتى ننتفعَ به ولا ينالنا من ورائه ضررٌ، فكان تقليدًا في النافع والضارِّ، والموافق لرُوحِنا والمخالِف آمَنَّا به واستسَغْناه وألِفْناه وأنزلناه من نفوسِنا منزلةً جلَّ بها عنِ النقدِ والتمحيصِ، وعنِ الشك والتغييرِ.

وهذا أيضًا لو استُشير فيه العِلْم لميَّز الذهبَ الخالصَ من البَهْرجِ[(١)] الزائفِ، ولَبصَّرنا ما نأخذ منه وما ندَع، وما يوافق طِباعَنا ومِزاجَنا النفسيَّ وما يخالِف، وما ينفعنا وما لا ينفعنا، وما هو عند أهلِه مرَضٌ يودُّون التخلُّصَ منه، وما هو صحَّةٌ يودُّون الإبقاء عليه، ولبصَّرنا أنه لا يصحُّ التقليدُ فيما هو مرَضٌ باعترافِ أهلِه، وأخْذُ الصالح والطالح جميعًا.

هذا هو شأنُنا فيما وَرِثْناه وما اقتبَسْناه.

ولقد كان ذلك كلُّه باعثًا لي على أن أفكِّر في الأمر، وحافزًا لي على أن

(١) البهرج: فارسي معرَّب، أصله «نبهره»، أي الرديء. انظر: الصحاح (ب. هـ. ر. ج)، ١/ ٣٠٠، المغرب في ترتيب المعرب ١/ ٩٢.

أبذُلَ كلَّ ما أستطيع من جهودٍ متواضعةٍ في سبيلِ خيرِ الأمَّةِ والنشء والثقافةِ، فعزمتُ على أن أقصِدَ إلى أسلوبٍ؛ أسلوب من أساليبنا في الحياة، وإلى بعض علومِنا، فأبحثه تحت ضوء العِلْم لنتبيَّن عيوبه، وأوضِّح رأي العِلْم فيه وفيما يشيرُ به من إصلاحٍ أو تبديلٍ، ثم أعرِض نتائجَ البحثِ على أولي الأمرِ وقادةِ الفكرِ في مصر، مؤمِّلًا أن يشاطِروني الشعورَ بضرورةِ الإصلاحِ، وأن يقومَ كلُّ غيورٍ على مجدِ الوطنِ وحريصٍ على مستقبلِ الشبابِ والثقافةِ في مصرَ، بما يستطيع القيامَ به في سبيلِ تحقيقِ آمالِ الأمَّةِ في الإصلاحِ.

ولعلِّي بهذه الدعوةِ أستطيعُ أن أفيدَ أُمَّتي كما أفدتُ منها، وأن أجزيَها خيرًا بخيرٍ، وإحسانًا بإحسانٍ.

وأولُ ما أبدأُ به أسلوبُ تعليمِ اللغةِ العربيةِ، فسأحاولُ أن أبحثَه، وأبيِّن عيوبَه، وأذكر ما يشير به العلمُ من أسلوبٍ، ولعلَّ هذه الدعوةَ تلْقَى ما أريدُه من توفيقٍ يشجِّعني على المضيِّ في السَّبيلِ الذي اعتزمتُه، والمنهجِ الذي أردتُه، ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَـٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود: ٨٨].

❋ ❋ ❋

عَرْضُ الآراء المعاصِرة في تيسير اللغة العربية ونَقْدُها

رأي مَن يقول بوجوبِ التوفيقِ بين العاميةِ والعربيةِ- بيانُ أن ذلك يؤدِّي إلى إحداثِ لغةٍ جديدةٍ لا هي بالعاميَّةِ ولا هي بالعربيَّةِ- العربيةُ لغةُ القرآنِ فيجب الاحتفاظُ بها- العربيةُ أداةُ التفاهمِ بين ثمانين مليونًا- العربيةُ لغةُ تراثنا العقليِّ- رأي مَن يشير باصطناعِ العاميةِ- العاميةُ تَسْجُنُنا في سجْنٍ لا نتفاهَم فيه مع جيرانِنا ولا نتفاهَم فيه مع أجدادِنا- رأي مَن رأىُ إيثارَ اللَّهجاتِ العربيةِ التي توافِق العاميةَ- بيانُ أن ذلك لا يَحُلُّ المشكلةَ.

شعَر رجالُ التربيةِ والتعليمِ في مصرَ منذ زمنٍ طويلٍ بإخفاقِ المعاهدِ المصريةِ المختلفةِ في تعليمِ اللغةِ العربيةِ، فهبُّوا يتعرَّفون أسبابَ هذا الإخفاقِ، ويعالجونه بالوسائلِ التي يرونها، ألَّفوا اللجانَ، وعقَدوا المؤتمرات، وبحثوا البحوثَ المختلِفةَ؛ فمرَّةً يرون الإخفاقَ من صعوبةِ النَّحو فينصرفون إلى تسهيلِه، ومرَّةً يرونه من كثرتِه فينصرفون إلى تقليلِه؛ ومرَّةً يرونه من قلَّته فينصرفون إلى تكثيرِه، ومرَّةً يرونه من مُدرِّس اللغةِ العربيةِ فيعمَدون إلى إصلاحِه وحُسْن اختيارِه والعملِ على توسيعِ ثقافتِه، ومرَّةً يرى بعضُ الباحثين أن هذا الإخفاقَ إنما هو من آثار البُعْدِ ما بين العاميَّةِ والعربيَّةِ، فيشير بالتقريبِ بينهما بأن تَنزل كلتاهما عن بعضِ خصائصِها لتقربَ من الأخرى. وهذا معناه إعدامُ اللغتينِ واصطناعُ لغةٍ لا هي بالعربيةِ ولا هي بالعاميةِ، وليس هذا إصلاحًا، وإنما هو خضوعٌ للحالةِ الراهنةِ، وإقرارُ الخطأ، والعجزُ أمام اللحنِ والتحريفِ.

والاعتباراتُ الدينيةُ والاجتماعيةُ والتاريخيةُ تقضي علينا بالاحتفاظِ باللغةِ العربيةِ كما هي تدِبُّ في عروقِها دماء القوّةِ والحياةِ.

أما الاعتباراتُ الدينيَّة فإنها لغةُ القرآنِ والسُّنَّةِ، ومنها يأخذ المسلمون دينَهم وعقائدَهم وأخلاقَهم وعباداتِهم وأحكامَ معاملاتهم، وهم يحرِصون على اللغةِ العربيةِ أشدَّ الحرصِ؛ ليفهموا بها كتابَ اللَّه وحديثَ رسولِه، فيبقى ذلك الينبوعُ الذي يستقون منه متدفقًا ثَرَّارًا، ويخشون أعظمَ الخشيةِ أن يصبحَ غورًا فيفقدوه وهم في مَسيسِ الحاجَةِ إليه، وهم لا يرضَون أن تَبيدَ اللغةُ العربيةُ كما بادت أخواتها من اللغاتِ الساميَةِ كالعِبْرانيةِ أو السُّريانيةِ، فيصبح القرآن لا يُتلى ولا يُفهم إلا في المساجد وعند أداء الشعائر، كما صارت العبرانيةُ والسُّريانيةُ لا يتليان[1] إلا في الصَّوامِعِ والبِيَعِ.

وأما الاعتباراتُ الاجتماعيةُ فإن اللغةَ العربيةَ الآن لغةٌ عامةٌ، فهي لغةُ شمالِ أفريقيةِ والجزء الغربيِّ من آسيا، وسكانها يبلغون أكثرَ من ثمانينَ مليونًا من الأنفس؛ إذ إن اللغةَ العربيةَ لغةَ الكتابةِ في هذه الأقطارِ جميعِها، ومنها تفرَّعت لهجاتهم، ولحرصِهم على اللغةِ العربيةِ دائمًا لا تَبْعُد اللَّهجات عنها، وكذلك لا تبعد لهجات الأقطار بعضُها عن بعضٍ بُعْدًا يجعل التفاهمَ بين أهلها متعذِّرًا.

وقد ربطت هذه اللغةُ بينهم برباطٍ اجتماعيٍّ وثيقٍ، وسهَّلت سبيلَ التعارُفِ والتآلُفِ، فأصبح المصريُّ مثلًا يسافر شرقًا إلى الشامِ أو الحجازِ أو العراقِ،

(١) هذا من الحمل على المعنى، فقد حمل لفظتي العبرانية والسريانية، وهما لغتان، على معنى اللسانين فذكَّر فقال: «يتليان»، أي ينطقان ويُتكلَّم بهما. وهذا يعكس عمق النظرية اللغوية في التطبيق لدى الأستاذ محمد عرفة، رحمه اللَّه.

ويسافر غربًا إلى لوبيا[١] وطرابلسَ وتونسَ والجزائرِ، ويسافر جنوبًا إلى بلادِ السودانِ وما وراءها فيرى أهلًا بأهلٍ وجيرانًا بجيرانٍ، يحِلُّ بين قومٍ يفهم عنهم ويفهمون عنه، ويألَفهم ويألَفونه، وكأنه لم يبْرَح بلدَه ولم يُفارق موطنَه، ذلك بفضلِ اللغةِ العربيةِ وما يسَّرت من تفاهُمٍ، وكذلك شأن السُّوريِّ والعراقيِّ والحجازيِّ إذا حلَّ بهذه الأقطار، وقد كان ذلك سببًا في زيادةِ التعاونِ وإحكامِ روابطِ الأُخوةِ والحبِّ بين شعوبِ الشرقِ العربيِّ، وفتَح طريقًا إلى الوَحْدَةِ العربيةِ التي يَنْشُدها كلُّ محبٍّ للشرقِ وللعربِ، وستحقَّق إن شاء اللَّه بفضلِ هذه اللغةِ.

وقد أدى ذلك إلى سهولةِ التجارةِ وتبادلها بين هذه الأقطارِ كما أدى إلى تبادلِ الثقافةِ وسائرِ ألوانِ الإنتاج في العلمِ والمعرفةِ والتفكيرِ، وصار المؤلِّف في مصرَ لا يؤلِّف لوطنِه وَحْدَه، وإنما يؤلِّف لجميعِ هذه الأقطارِ، كما صار طابعُ الكتبِ وناشِرُها لا يطبع أو ينشر لمصرَ فحسبُ، وإنما يطبع لهذه الأقطارِ ولبلادِ الهند والملايو[٢]

(١) لوبيا (لوبية) الاسم العربي لصحراء تفصل بين مصر وإيالة طرابلس الغرب، وقد وردت (لوبية) عند المؤرخين والجغرافيين العرب القدامى، وبعد الغزو الإيطالي لليبيا في نوفمبر ١٩١١م صدر مرسوم ملكي في يناير ١٩٣٤م بضم برقة وطرابلس في مستعمرة واحدة سميت (ليبيا)، وبعد ثورة سبتمبر ١٩٦٩م سميت (الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية). انظر: تاريخ خليفة بن خياط ٢٠٤، فتوح مصر والمغرب ٥٨، ١٩٧، التنبيه والإشراف ٧٢، معجم البلدان ٥/ ٢٥، الكامل في التاريخ ٢/ ٤٠٩ (ط. تدمري)، الموسوعة العربية العالمية ١٥/ ٥٧٤، ٥٧٥، ٢١/ ٢٥١، ٢٥٧، ٢٦٢- ٢٦٨.

(٢) الملايو (أرخبيل الملايو Malaya Archipelago): مجموعة من أكبر الجزر في العالم، تقع شرق آسيا وأستراليا، وتضم الفلبين وإندونيسيا ومجموعة أخرى من الجزر، =

وجاوَةَ[١] وسومطرة[٢] وبلاد الصين، كذلك شأن المؤلِّفينَ والناشرينَ في هذه الأقطارِ، وذلك كلُّه بفضلِ اللغةِ العربيةِ.

وأما الاعتباراتُ التاريخيةُ فإن علوم آبائنا وأجدادِنا وثقافتَهم وتراثَهم العقليَّ قد وضِعت باللغةِ العربيةِ، فنحن نحافِظ عليها ما حافَظْنا على هذا التراثِ. وهذا هو أيضًا ردُّنا على النفرِ القليلِ الذين دعوا إلى العاميةِ وإحلالها محلَّ اللغةِ العربيةِ.

أتدرون ماذا نكون إذا نحن اتَّبعنا مشورةَ أولئك وهؤلاء ممن يشيرون علينا بأن تتنازل العربيةُ عن بعضِ خصائصِها لتقربَ من العاميةِ، أو بأن نصطنعَ العاميةَ بدلَ العربيةِ؟[٣] إننا بذلك نعمد إلى تلك الصِّلاتِ التي بيننا وبين

= ويسمى الأرخبيل الشرقي أو الهندي أو أرخبيل ماليزيا، وهو جزء من المحيط الهادي. واللغة الملايوية: هي اللغة الحديثة التي يستخدمها الإندنيسيون، ودخل الإسلام هذه الجزر في القرن ٨ هـ. انظر: الموسوعة العربية العالمية ٢٤/ ١٠٤.

(١) جاوة: جزيرة تقع بين جزيرة سومطرة من الغرب وبالي من الشرق وبحر جاوة من الشمال والمحيط الهندي من الجنوب، وهي أكثر الجزر الإندونيسية كثافة بالسكان، ومنذ الاحتلال الهولندي لإندونيسيا أصبحت «جاوة» المركز السياسي في إندونيسيا، ويعيش بها ثلاثة أخماس سكان إندونيسيا. انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٣/ ١٧٣-١٧٨.

(٢) جزيرة سومطرة: هي إحدى جزر إندونيسيا وسادسة كبرى الجُزر في العالم. تقع أقصى غربي الجزر الإندونيسية الرئيسية، إلى الشمال الغربي من جزيرة جاوة، والجنوب الغربي من جزيرة الملايو. وتتكون من ثماني مقاطعات. انظر: الموسوعة العربية العالمية ١٣/ ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢.

(٣) ممن حاول اصطناع عامية بدلًا من الفصحى د. محمد كامل حسين (ت ١٩٧٧م)، الذي حاول تغيير نموذج النحو التقليدي في كتابه «اللغة العربية المعاصرة»، وقسمها =

جيراننا الشرقيين فنقطَعها فنصبح نتكلَّم بلغةٍ لا يفهمونها ويتكلَّمون بلغةٍ لا نفهمها، ونعمَد إلى تلك الصِّلاتِ التي بيننا وبين أسلافِنا الماضينَ فنقطَعها أيضًا ونصبح لا نتصل بعلومهم ولا ثقافتهم؛ لأنها باللغةِ العربيةِ ونحن نصطَنع العاميةَ، ونكون قد سَجنَّا أنفسَنا في سِجْنِ العاميةِ المظلمِ[1]، لا يفهمنا أحدٌ ولا نفهم أحدًا، بعد أن كنا في ميادينِ العربيةِ الفسيحةِ التي تمتدُّ شرقًا وتضرِب في بلادِ الهند والصين، وتمتدُّ غربًا وتضرِب في سواحلِ المحيطِ الأطلسيِّ، وتمتدُّ جنوبًا وتضرِب في المحيطِ الهنديِّ، وتمتدُّ شمالًا وتضرِب في آسيا الصغرى وبلاد الأناضولِ، وتمتدُّ في الماضي وتضرِب في عهود العباسيينَ والأمويينَ والخلفاء الراشدينَ وعصرِ البعثةِ المحمديةِ وما قبل البعثةِ من عصورِ العربِ الأولينَ.

ومرَّة يرى بعضُ الباحثينَ أن يقرّب بين العربيةِ والعاميةِ بأن يُؤْثِر كلَّ لهجةٍ عربيةٍ توافق العاميةَ، فيؤثر اللغةَ التي تُلزِم الأسماء الخمسةَ الألِفَ؛ لأن

= أربعة مستويات من بينها اللغة المخففة- وهي اللغة الشائعة بين المثقفين والمتعلمين- ودعا إلى دراستها ووضْع قواعد منظِّمة لها، وهي دعوة تخالف النموذج الذي حدَّده القدماء، ولا تطابق الواقع اللغوي، وظلت في الإطار النظري لم تخرج إلى الحيِّز العملي.

(١) الدعوة إلى اطِّراح اللغة العربية الفصحى واستخدام العامية بدلًا منها، وأن تكون العامية لغة للفنون والعلوم والأدب، أو كتابتها بالحرف اللاتيني، نادى بها بعض المستشرقين، وتبعهم من دعاتهم في بلاد العرب في الشرق؛ سلامة موسى (ت ١٩٠٨م)، يعقوب صنوع (ت ١٩١٢م)، ومارون غصن (ت ١٩٤٠م)، وغيرهم وهي كلها دعوات لنسف التراث العربي الإسلامي الذي يعني الهوية، وقد رفضها الضمير القومي والوطني.

العاميةَ تنهَج في أسلوبها هذا المنهجَ، ويؤثِر اللغةَ التي تعرِب جمعَ المذكرِ السالمِ إعرابَ «حين»؛ لأن العامية تفعل ذلك.

وهذا لا يَحُلُّ المشكلةَ؛ لأن العاميةَ لا تلتزِم نهجًا واحدًا خاصًا في أسلوبها ولا تلتزِم لغةً من هذه اللغاتِ. وأيضًا فكثيرٌ من العاميةِ ليس له نظيرٌ في لهجةٍ من اللَّهجاتِ العربيةِ.

ثم ماذا يفعلون؟ أيوجِبون هذه اللغةَ ويخطِّئون ما عداها، أم يُجوِّزونها ويُخيِّرون بينها وبين اللغاتِ الأخرى؟ فإن كان الأول أدى ذلك إلى أن المتعلِّم على هذه الطريقةِ يخطِّئ القرآنَ وكلامَ رسولِ اللّهِ وكلامَ العربِ، إذا جاءت على غيرِ هذه اللغةِ. وإن كان الثاني لم يعد ذلك تسهيلًا؛ لأنه لم يفعل شيئًا سوى أن زاد في الطُّنبورِ نغمةً، فبعد أن كان يعلم لغةً واحدةً في جمعِ المذكرِ السالمِ هي اللغة العامة القياسية، أصبح يعلم اللغةَ العامةَ واللغاتِ الأخرى القليلةَ.

ثم هذا يضيِّع على المسلمينَ الغرضَ الذي يَرْمون إليه، ويحرِصون عليه أشدَّ الحرصِ، وهو الاحتفاظُ بلغةِ القرآنِ ولهجتِه وطريقِ أدائه.

والذين يدعوننا إلى تيسير قواعدِ النحو والصرفِ والبلاغةِ أقربُ إلى الصوابِ؛ ونحن نؤمن كما يؤمنون بضرورةِ هذه الخطوةِ، وإن كنا نخالفهم فيما ذهبوا إليه من قواعدَ كما بينَّا ذلك في حينِه، ونرى أن التسهيلَ جزءٌ من كلٍّ من الإصلاحِ المنشودِ.

فأنت ترى من هذا كلِّه أن المشكلةَ على ما هي عليه لم تُحَلَّ ولم توشِك أن تُحَلَّ. وسنحاول إن شاء اللّه في الفصولِ الآتيةِ أن نَحُلَّ هذه المشكلةَ التي استعصَى على الزمنِ حلُّها.

إخفاقُنا في تعليمِ اللغةِ العربيةِ ونتائجُه الخطيرةُ

شكْر جميعِ الذين ساهموا في بحثِ مشكلةِ اللغةِ العربيةِ؛ سواء أوفِّقوا أم لم يوفَّقوا- نُبْل أغراضهم.

بيانُ أننا أخفَقْنا حقًّا في تعليمِ اللغةِ- كراهيةُ الشبابِ لعلومِ اللغةِ- أضرارُ اصطناعِ لغةٍ للخطابِ وأخرى للكتابِ، منها كتابة العلومِ والآدابِ بلغةٍ لا يفهَمها الشعبُ فتبقَى الأمَّة جاهلةً- العملُ على تيسيرِ اللغةِ العربيةِ عملٌ على ترقيةِ المتكلِّمين بها.

بيَّنا في مقالنا السابق جهودَ رجالِ العلمِ والتربيةِ في سبيلِ إصلاحِ تعليمِ اللغةِ العربيةِ، تلك الجهود التي إن أخطأها التوفيقُ فلن يخطئها أن تكونَ حقيقةً بالشكرِ وعرفانِ الجميلِ.

إن هذه الجهودَ المختلفةَ دليلٌ على عنايتهم باللغةِ العربيةِ وحرْصِهم عليها، ومعرفتهم بقدْرِها، ودليلٌ على أنهم يحبون شبابَ هذه الأمَّة، ويَوَدُّون أن يسهِّلوا عليهم ما صعُب، ويقرِّبوا إليهم ما بَعُد، وأن يسهَروا ليناموا، وأن ينصَبوا لهم ليجِدوا السعادةَ والراحةَ.

وهذا وَحْدَه جهدٌ مشكورٌ وصنيعٌ غيرُ مكفورٍ، جديرٌ بالإجلالِ والتعظيمِ، سواء أوفِّقوا فيما حاولوا أم لم يوفَّقوا.

وربَّ قائلٍ يقول: لقد وضعتَ أن المعاهدَ في مصرَ أخفَقت في تعليمِ اللغةِ العربيةِ، وأخذتها مقدِّمة مسلَّمة، وكنتَ بحاجةٍ إلى أن تقيمَ عليها الدليلَ،

فلعلَّها لم تخفِق في تعليمِ اللغةِ، ولعلَّها نجحت أعظمَ النجاحِ، ولعلَّ ما هو مشهورٌ بين رجالِ التعليمِ من أنها أخفَقت في هذه المهمةِ - من القضايا التي اشتُهرت لغرضٍ من الأغراضِ، فإذا نقِدت تبيَّن خطؤها. فلسنا نسايرك حتى تقيمَ الدليلَ على هذا الإخفاقِ.

وأقول: إنِّي أوافق هذا القائلَ على أنه لا بدَّ من أن يقامَ الدليلُ على هذه المقدِّمةِ، ولا يصحُّ أن تترك دون بيانٍ.

إن المرء يكون قد أتقَن لغةً ما إذا كان يتكلَّم ويقرأ ويكتُب بهذه اللغةِ، جاريًا على قواعدِها، مراعيًا قوانينَها، لا يلحَن فيها ولا يخطِئ، وإن المدرسةَ تكون قد نجحَت في تعليمِ اللغةِ إذا كان الذين تخرَّجوا فيها جميعُهم أو أكثرُهم على هذه الصفةِ، فهل من تخرجوا في مدارسنا كذلك؟!

أما الكلامُ باللغةِ العربيةِ فلا تكاد تجد أحدًا يتكلَّم بها، فالشعبُ كلُّه يصطِنع في التفاهمِ والتخاطُب اللغةَ العاميَّةَ، وليس مِنَ الناسِ مَن يصطنع اللغةَ العربيةَ إلا في الندرةِ، وعلى سبيلِ الشُّذوذِ، حتى إن دروسَ اللغةِ العربيةِ تُلْقَى بالعاميةِ، فقد دخلتِ العاميةُ على العربيةِ حجراتِ دروسِها، وغَزَتْها في مَعاقِلها، وأخصِّ الأماكنِ بها.

ومن المضحِك حقًّا أن تجد مدرسَ النحوِ أو الصرفِ أو البلاغةِ، أو مفسِّرَ النصوصِ العربيةِ؛ من شعرٍ ونثرٍ، يلقي دروسَه وقواعدَه بلغةٍ عاميةٍ، لا يراعي ما يقول من قوانينَ، ولا يقوِّم لسانَه بما يَسْرُد من قواعدَ.

فأما الكتابةُ والقراءةُ بها، فلا يقرأ باللغةِ الفصحى ولا يكتب إلا فئةٌ قليلةٌ،

تمكَّنت من حفْظِ لسانها من الخطأ عند القراءةِ والكتابةِ، وجمهرةُ المتعلِّمين لم يصِلوا إلى هذه المنزلةِ، فالشابُّ يتخرَّج في المدرسةِ أو في المعهد، ولسانُه لا يكاد يقيم جملةً، أو يعرِبُ كلامًا، ولا يستطيع أن يعبِّر عن خَلَجاتِ نفسِه بأسلوبٍ صحيحٍ مستقيمٍ. وإذا لم يكن هذا إخفاقًا، فماذا يكون الإخفاقُ؟

وكما لم توفَّق مدارسُنا في الغاية، لم توفَّق في الوسيلةِ، أو قُلْ: إنها لم توفَّق في الغاية؛ لأنها لم توفَّق في الوسيلةِ؛ فالوسيلةُ إلى تعلُّمِ اللغةِ هي دروسُها، ولما تستطع مدارسُنا أن تُحبِّبَها إلى التلاميذِ، فهم يأتون إليها متثاقلينَ، ويستمعون إليها كارهينَ، وهم يُبْغِضونها بغضًا يملأ ما بين جوانحهم. فالنحو عندهم ثقيلٌ بغيضٌ، وكذلك الصرفُ، وعلمُ البيانِ- الذي قال فيه بعضُ العلماء إنه لا ثوابَ في تعلُّمِه، يشير إلى أنه لا مشقَّةَ فيه على المتعلِّمِ، وهو يُطلب لما فيه من لذَّة، فجزاؤه فيه- قد بغَّضَتْه إليهم هذه المدارسُ أيضًا، وليس العيبُ في ذلك على الشبابِ؛ لأنهم يدرُسون الهندسةَ والحسابَ والطبيعةَ في غيرِ ضيقٍ ولا حَرَجٍ، بل يَدْرُسُونها في شَغَفٍ ومحبَّةٍ- إنما العيب على دروسِ اللغةِ العربيةِ وَحْدَها.

فلا عجبَ بعد ذلك إن لم ينتفِعوا بهذه الدروسِ؛ لأن الانتفاعَ بالشيء على قدْرِ المحبَّةِ له، والرغبةِ فيه.

هذا شيءٌ مخيفٌ حقًّا، له نتائجُه الخطيرةُ؛ فإما أن نعملَ على تسهيلِ الانتفاعِ باللغةِ العربيةِ وتيسيرِها على الدارسينَ والمتعلِّمينَ وتزيينِ علومِها في قلوبهم، وإما أن نتحمَّلَ أمام التاريخِ والأجيالِ عواقبَ هذا التفريطِ

والإهمالِ؛ لأن الشيء البغيضَ المملولَ لا يعمِّر طويلًا، ولا يمكن أن يُكْرَهَ الناسُ عليه دائمًا.

وهناك أمرٌ آخَرُ ينتُج من الخيبةِ في تعليمِ اللغةِ العربيةِ، يخشاه رجالُ الاجتماعِ أعظمَ الخشيةِ، ويشفِقون منه أشدَّ الإشفاقِ، وهي[1] بقاء الحالِ على ما هي عليه في مصرَ، من اصطناعِ لغةٍ للخطابِ، وأخرى للكتابِ، بينها وبين جمهورِ الشعبِ بَوْنٌ شاسعٌ، وعِقابٌ[2] صِعابٌ.

وإنما كانوا يخشونه ويشفِقون منه؛ لأن ذلك يؤدي إلى إطالةِ أمدِ جهلِ الأمَّةِ وتأخُّرِها؛ لأن العلمَ والأدبَ قد كتِبا بلغةٍ لا يفهمها جمهورُ الشعبِ، وهي العربيةُ، فلا سبيلَ إلى وصولِه إليها.

أما إذا نجحتِ المدرسةُ في تعليمِ العربيةِ، وتكلَّم بها المتعلمون وهم مخالِطون للشعبِ، فعلى مرورِ الزمنِ يسهُل عليه فهْمُ اللغةِ العربيةِ ويتسرب إليه كثيرٌ من مفرداتها وتراكيبها، وربما علمها فصارت لغةَ الخطابِ ولغةَ الكتابِ[3]، وهذا كسْبٌ ليس بالقليلِ، فكلُّ ما كتِب من علوم وأخلاقٍ وآدابٍ يكون حينئذٍ في متناوَلِ جمهورِ الشعبِ، فيرقَى إلى الذُّروةِ التي يَنْشُدها له المصلحون.

وهناك طائفةٌ من رجالِ الاجتماعِ ترى أنه إذا خابتِ المدرسةُ في تعليمِ العربيةِ، وخابتِ الأمَّةُ في اصطناعِها وفي رفْعِ لغةِ الحديثِ إلى اللغةِ التي

---

(١) كذا في الأصل، ولعله يعني المعضلة أو المسألة.

(٢) جمع: عَقَبة.

(٣) أي الكتابة؛ تقول العرب: كتب الشيء يكتبه كَتْبًا وكتابًا وكتابةً، انظر: لسان العرب (ك. ت. ب)، ١/ ٦٩٨.

تُكْتَب بها العلومُ والآدابُ، فلا مناصَ من كتابةِ العلومِ والآدابِ باللغةِ التي تفهمها الأمّةُ، لتنتفعَ بها، ولتبلغَ الأملَ المنشودَ؛ لأنه خيرٌ للأمّةِ أن تخسَرَ اللغةَ العربيةَ وتكسِبَ العلمَ الذي به نماءُ عقولها، والآدابَ التي بها تقويمُ أخلاقِها، من أن تربَح العربيةَ وتخسَر العلمَ والأدبَ[١].

فأنتم ترون أن الأمرَ جدٌّ خطيرٍ، وأنه يعني حياةَ اللغةِ العربيةِ أو موتَها، ونجاحَ المتعلِّمينَ في تعلُّمِهم أو إخفاقَهم، ورقيَّ الأمةِ أو انحطاطَها.

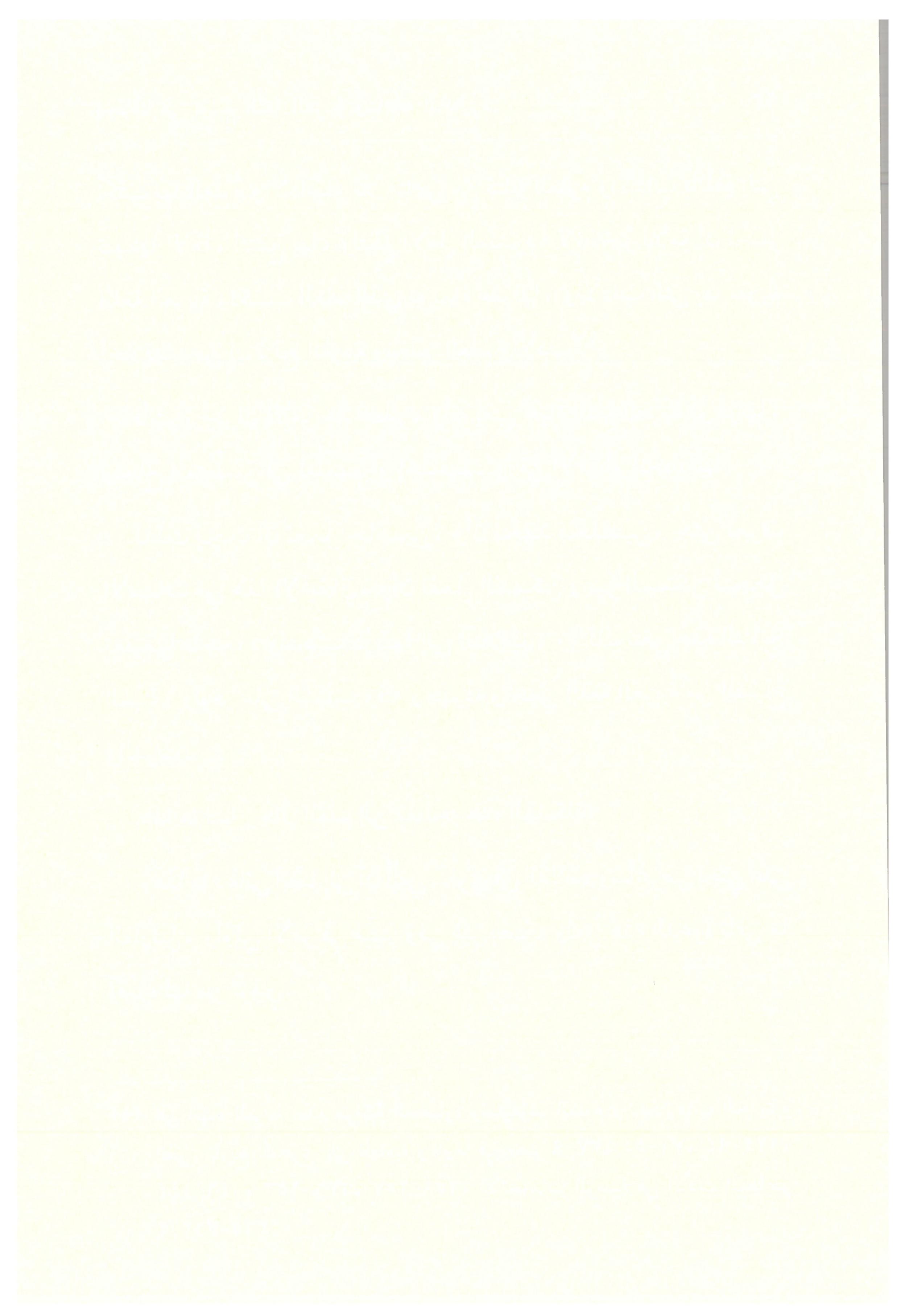
لذلك يجب أن نعملَ جاهدينَ، وأن نَجْهَد مخلصينَ، حتى نعرفَ الأسبابَ في هذا الإخفاقِ، وأن نفعلَ الممكنَ وغيرَ الممكنِ لنجعلَ تعليمَها ناجحًا، ولنحبِّب دَرْسَها إلى التلاميذِ، وبذلك نتقي هذه النتائجَ السيئَةَ، ونوفر على الشبابِ وقتَه وجهودَه ونحمِي اللغةَ العربيةَ مِنَ الضَّياع والموتِ.

هذا ما دعا رجالَ العلمِ إلى معالَجةِ هذه المشكلةِ.

وهذا ما دعاني أيضًا إلى أن أُلْقي بدَلْوي في الدِّلاء، وسأعرِض بحثي على القارئينَ، وأولي الأمر في مصرَ وفي غيرِ مصرَ، ولعلَّ هذه الدعوةَ تلقَى ما أقدِّره لها من توفيقٍ.

---

(١) عن اتهام العربية بعدم مواكبة الحضارة واستيعاب العلوم والمخترعات الحديثة، انظر: تاريخ الدعوى إلى العامية وآثارها في مصر ٩-٣٧، ٥٥-٧١، ٩٤-١٢٢، ١٤٤-١٤٦، ١٥٣-٢٣٦، ٢٥٧-٢٥٩، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ٢/ ٣٦٢-٣٦٥.



دَرْسُ أسلوبِ تعليمِ اللغةِ العربيةِ وبيانُ عيوبِه

ليس فيما جئتُ به من أسلوبِ تعليمِ اللغةِ جديدٌ- اقتباسُه من العامَّةِ ومعلِّمي الصَّنْعات- الجِدَّة في نقْد القواعدِ- عنايةُ الأمَّةِ الإسلاميةِ باللغةِ العربيةِ- استنباطُها علومَها المختلفة- اصطناعُ القواعدِ في تعليمِ اللغةِ- درْس أساليبِ الصُّناع في تعليمِ تلاميذِهم- اعتمادُهم على المرانِ والتكرارِ- سرُّ الإخفاقِ في تعليمِ العربيةِ الاعتمادُ على القواعدِ- سرُّ النجاحِ في تعليمِ الصنعةِ الاعتمادُ على المرانِ والتكرارِ- إصلاحُ أسلوبِ تعليمِ اللغةِ أن نأخذَ بأسلوبِ تعليمِ الصُّناعِ من المرانِ والتكرارِ- التشكيك في ذلك- الوعدُ بإقامةِ البرهانِ عليه.

يتوقَّع القراء أنني سآتيهم في مشكلةِ اللغةِ العربيةِ بحلولٍ مطوَّلةٍ وآراء معقَّدةٍ، تثقل على العامَّةِ ولا يُسِيغُها إلا الخاصَّةُ.

وإنني سآتيهم بالجديدِ الذي لم يَقْرَع أسماعَهم، ولم يخطِر لهم ببالٍ. وإني أقول للقراء: إن ما سأعرِضه عليهم قسمان: الأول نقدُ الطريقةِ التي تسلُكها المدارسُ في تعليمِ اللغةِ، والثاني نقدُ علومِ اللغةِ من نحوٍ وصرفٍ وبلاغةٍ، وإبطالُ الباطلِ من قواعدِها، وإحلالُ الحقِّ محلَّه.

فأما نقدُ أسلوبِ تعليمِ اللغةِ فإني أحبُّ أن أُطمئنَ القراء من جهتِه، فإن الحلولَ التي جئت بها سهلةً لا غموضَ فيها، بسيطةً لا تركيبَ فيها؛ وهكذا شأنُ الحقيقةِ[1] تمتاز بالسهولةِ والبساطةِ، وقد أخذتُها من العامَّة

(١) يعني: شأن الحقائق العلمية التي يُعبَّر عنها بألفاظ محددة الدلالة، على نحو ما يعبَّر =

وأشباه العامَّةِ، أخذتها من الحائكِ إذ يعلِّم الحياكةَ، والحدادِ إذ يعلِّم الحِدادةَ، والنَّجارِ إذ يعلِّم النِّجارةَ.

وليس فيما جئتُ به في هذا الموضوعِ جدَّةٌ، وإنما هو قولٌ مُعادٌ مكرورٌ، قاله علماء الشرقِ قديمًا وعلماء الغربِ حديثًا، حتى إنني ترددتُ في عرضِه على الناسِ، ولكن يشفَع لي في عرضِه أن قومي لم يعملوا به كأنهم لا يعرِفونه، فقلت: لعلَّهم يحتاجون إلى الإقناعِ به، وإقامةِ الدليلِ عليه، وإدارة[1] الكلامِ على البرهانِ والإقناعِ؛ ليوافقَ طبقاتِ الناسِ، وكذلك فعلتُ.

وأما نقدُ القواعدِ وبيانُ الباطلِ منها، وإحلالُ خيرٍ منها محلَّها، فهي مسائلُ فنيةٌ يصعُب فهمُها إلا على الدارسينَ، وهي جديدةٌ قد نشأت من الدرسِ الطويلِ، والتأمُّلِ والتنقيبِ في هذه العلومِ، وفيها لذَّةٌ ومتعةٌ، فسيرى فيها القراء مصاوَلةَ[2] العقولِ ومقارعَةَ الآراء، وسيرون علومًا كانت تُحاط بهالةٍ من التقديسِ تنهار وتتهدَّم، وعلومًا أخرى حلَّت محلَّها وأخذت مكانها، فبدت أعلى منها وأسمقَ، وما نهدم ما نهدم إلا عن بينةٍ وحجَّةٍ، وما نبني ما نبني إلا عن بينةٍ وحجَّةٍ. فما عدَّله الدليلُ فهو العدلُ الثقةُ، وما جرَّحه الدليلُ[3] فهو المجرَّح المدخولُ.

= به عن المصطلحات والمفاهيم والنظريات العلمية.

(١) في المطبوعة: «وإرادة»، والمثبت من أصل المقال بمجلة الرسالة، العدد (٥٣٠)، ٣٠ أغسطس ١٩٤٣م.

(٢) المصاولة والصِّيال والصيالة: المواثبة، والصولة الحملة والوثبة.

(٣) قوله: «وما نبني ما نبني. . . جرحه الدليل» سقط من المطبوعة، وأثبتناه من مجلة الرسالة.

فإن كان ما جئتُ به حقًّا فللقراء خيرُه وبركتُه، ولي ما كابَدْتُه من النَّصب والهمِّ، وإن كان باطلًا فعليَّ تَبِعتُه وعارُه، وخلاهم ذمٌّ.

ربما لم تُعْنَ أُمَّةٌ في العالَم بلغةٍ ما كما عُنيتِ الأممُ الإسلاميةُ باللغةِ العربيةِ، وقد عظُمت هذه العنايةُ واتصلَت وتلاحَقت مدةَ ثلاثةَ عشرَ قرنًا، فتوافر العلماء عليها في القديمِ يَدْرُسونها من نواحيها المختلفةِ؛ درَسوا مفرداتها وعرَفوا التغييرات[1] التي تلحَق المفردَ، والأوزانَ التي يكون عليها، وكيف تتصرَّف الكلمةُ في الماضي والمضارعِ والأمرِ واسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ والصفةِ المشبَّهةِ إلخ، وعَرفوا قواعدَ ذلك وسمَّوه «علْمَ الصَّرْفِ»، وعرَفوا ما تدلُّ عليه كلُّ كلمةٍ من معانٍ، والشواهدَ التي يُسْتشهَد بها على هذه المعاني، ودوَّنوا ذلك وسمَّوه «علْمَ متنِ اللُّغةِ»[2]، ودرسوا نَظْمها وتراكيبَها المختلفةَ، وما يفيده كلُّ نظمٍ وتركيبٍ، ووضَعوا قوانينَه وسمَّوه «علْمَ النحو». ودرَسوا فضيلةَ الكلامِ، ووضَعوا القواعدَ التي يحسُن بها الكلامُ وسمَّوها «علم البلاغة». ودرَسوا ما في لغةِ العربِ من شعرٍ ونثرٍ وبيَّنوا معانيَه، ودرسوا أوزانَ الشعرِ وأعاريضَه وقوافيَه، وهلمَّ جرًّا.

وضَعوا كلَّ ذلك في قوانينَ، ووضعوا هذه القوانينَ في كتبٍ قد سُطِرت، وصحفٍ قد نُشِرت، وكان كلُّ جيلٍ من الأجيالِ يَزِيد ويُنْقِص، ويغيِّر ويبدِّل على حسبِ ما يتراءى له، ويضع الكتبَ الجمَّةَ والأسفارَ المختلفةَ، وكانوا يعكِفون عليها يتدارسونها يعلِّمها كبيرُهم صغيرَهم، وعالمهم جاهلَهم،

---

(١) في المطبوعة: «التغيرات»، والمثبت من أصل المقال.

(٢) علم يبحث في موضوعات الألفاظ ومعرفة أوضاعها وأصولها ومعانيها المعجمية. انظر: مواهب الفتاح لأبي العباس المغربي ١٣٤، كشاف اصطلاحات الفنون ٢/١٤٠٨.

وقد ورِثْنا نحن هذه العنايةَ فدرَسْناها في جميعِ معاهدِ التعليمِ، فهي تُدرَس في وزارة المعارفِ، في الأقسامِ الابتدائيةِ والثانويةِ وفي التعليمِ الأوَّلي، وهي تدرَس في المعاهدِ الدينيةِ والأزهرِ في الأقسامِ الابتدائيةِ والثانويةِ، وهي تدرَس في كليةِ اللغةِ العربيةِ من كلياتِ الأزهرِ، وفي كليتي الآدابِ من جامعتي فؤاد وفاروق[1]، وهي تدرَس في دارِ العلومِ ومدارسِ المعلِّمينَ والمعلِّمات، ونصيبُها من الحصصِ في هذه المعاهدِ نصيبُ الأسدِ.

عكَفت مدارسُنا على هذه القواعدِ التي استنبَطها العلماء المتقدِّمون في النحوِ والصرفِ والبلاغةِ والعَروضِ والقافيةِ، تدرُسها وتضبِط شواردَ العربيةِ على المتعلِّمينَ.

وكانت تقسِم القواعدَ على سِنِي الدراسةِ قسمةً تراعَى فيها الحكمةُ، فهي قليلةٌ موجَزةٌ في الأقسام الابتدائية، وكثيرةٌ مطوَّلةٌ بعضَ الشيء في الأقسامِ الثانويةِ، وهي مطوَّلةٌ كلَّ التطويلِ ومستوعِبةٌ كلَّ الاستيعابِ في المدارسِ العاليةِ.

---

(١) أنشئت الجامعة المصرية في ديسمبر عام ١٩٠٨م، بدعم من جهود رواد الفكر والإصلاح وقادة الحركة الوطنية، ثم سميت جامعة فؤاد الأول ثم الجامعة الأهلية، ثم بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م سميت جامعة القاهرة، انظر: تاريخ جامعة القاهرة، للدكتور رءوف عباس ٤٦-٦٧.

وأسِّست جامعة الملك فاروق بالإسكندرية في فبراير ١٩٥٠م بعد أن وضع الملك فاروق حجر الأساس لها في احتفال حضره د. طه حسين وزير المعارف، وكانت تضم وقتها كليات: الآداب والحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والعلوم، وفي عام ١٩٥٢م سميت «جامعة الإسكندرية». انظر: تاريخ الجامعات المصرية دراسة في الوثائق، لعبد المنعم الجميعي ص ١٢-٢٥، وجامعة القاهرة في عيدها المئوي، لمحمود فوزي المناوي: ٧٧.

إنِّي لأعجَبُ كيف تُخفِق مدارسُنا وتخفِق الأجيالُ قبلَنا في تعليمِ هذه اللغةِ مع هذه العنايةِ وهذا الجهدِ؟!

أينجَح الحائك في تعليمِ الحياكةِ، والبنَّاء في تعليمِ البناء، والنَّجارُ في تعليمِ النِّجارةِ، وكلُّ ذي صنعةٍ في الدنيا في تعليمِ صنعتِه، ويَخيب رجلُ العلمِ والتربيةِ في تعليمِ اللغةِ العربيةِ؟!

أينجَح تلاميذُ الصُّناعِ جميعًا إلا قليلًا، ويَخيب تلاميذُ رجالِ العلم إلا قليلًا، مع أن الأولينَ يبذلون أقلَّ جهدٍ ومشقةٍ في تعليمِ الصناعِ ولا يعلِّلون المسائلَ ولا يُفلسِفونها، ولا يعمَلون شيئًا إلا أن يأخذوا المتعلمينَ بأعمالٍ كثيرةٍ من صنعتِهم ويمرِّنوهم ويكرِّروا ذلك، فإذا هم قد حَذَقوا الصنعةَ وأجادوها، ومع أن الآخرينَ يبذُلون كلَّ جهدٍ ومشقةٍ، ويذكرون عِللَ العربيةِ ويفلسِفونها، ويُطْلِعون تلاميذَهم على دقائقِها وخفاياها.

لعلَّ مازحًا يمزَح ويقول: إن سرَّ هذا الإخفاقِ في هذه العنايةِ، وسرَّ هذا النجاحِ في هذا الإهمالِ.

وسنأخذ هذا المِزاحَ جدًّا، ونرى أنه يشير إلى الطريقِ ونضَع أن سرَّ نجاحِ أولئك في طريقتِهم، وسرَّ خيبةِ هؤلاء في طريقتِهم.

سرُّ نجاحِ أولئك في المرانةِ والتَّكرارِ حتى يكسِبوا الصنعةَ، وسرُّ خيبةِ هؤلاء في الاعتمادِ على القواعدِ وترك الحفظِ والمرانةِ والتكرارِ.

ولو أخذ كلٌّ بطريقةِ الآخرِ لخاب الناجحُ، ونجح الخائبُ.

لو علَّم الحائك تلميذَه بطريقِ القواعدِ فحسبُ، وظلَّ طولَ عمرِه يقول له:

شُدَّ الخيطَ طولًا واسلُك فيها الخيوطَ عَرْضًا ليتكونَ منها سَدًى ولُحْمةٌ[١]، ولم يأخُذْه بأعمالِ الحياكةِ الكثيرةِ وتَكرارِها والمرانةِ عليها- لخاب في التعليمِ ولم يُكْسِبْه الحياكةَ، ولو أخذ عالم العربيةِ بطريقِ المرانةِ والتكرارِ والحفظِ، فحفِظ تلاميذُه أساليبَ العربيةِ البليغةِ، ومُثُلَها الرائعةَ مما يعتاد في الخطابِ، وأخذَهم بالنسْجِ على منوالها في الحديثِ والكتابةِ والخطابةِ لنجَح في تعليمِه.

ولا عجبَ أن يكونَ هذا الصانعُ العاميُّ أقربَ إلى الحقيقةِ من هذا العالمِ المربِّي؛ لأن هذا العاميَّ يرجِع إلى الواقعِ ويَسْتملي منه، وهذا العالم قد أغفَل الواقعَ وقلَّد ما كان عليه الآباء والأجدادُ.

هذا العاميُّ يعلَم أن قواعدَ الصنعةِ لا تعطي الصنعةَ، ولا يعطيها إلا تمرينُ المتعلِّمِ، وأخْذُه بنماذجَ كثيرةٍ، وتكريرُ ذلك حتى يتقنَها.

وهذا العالم أغفَل هذه الحقيقةَ وظنَّ أن قواعدَ اللغةِ تكسِبُ اللغةَ، وأن قواعدَ البلاغةِ تكسِبُ البلاغةَ، فأخذ يبدأ فيها ويعيد، ويكرِّر ويكثِر من التَّكرارِ، فأكسَبهم مَلَكةً في قواعدِ اللغةِ، ولم يكسِبْهم مَلَكةَ اللغةِ.

سَيَهُول هذا أقوامًا ويَرَوْنه سُخْفًا من القولِ، وقياسًا مع الفارق، ويقولون: إنك لم تعمل شيئًا سوى أنْ قِسْتَ قياسًا فقلتَ: تعليم وتعليم، ولغة وصنعة، وكما أن الصنعةَ لا تُكْسَب بالقواعدِ إنما تكسَب بالعملِ والتَّكرارِ، كذلك لا تُكْسَب اللغةُ العربيةُ بالقواعدِ فحسبُ، إنما تكسَب بالعملِ والتَّكرارِ والحفظِ،

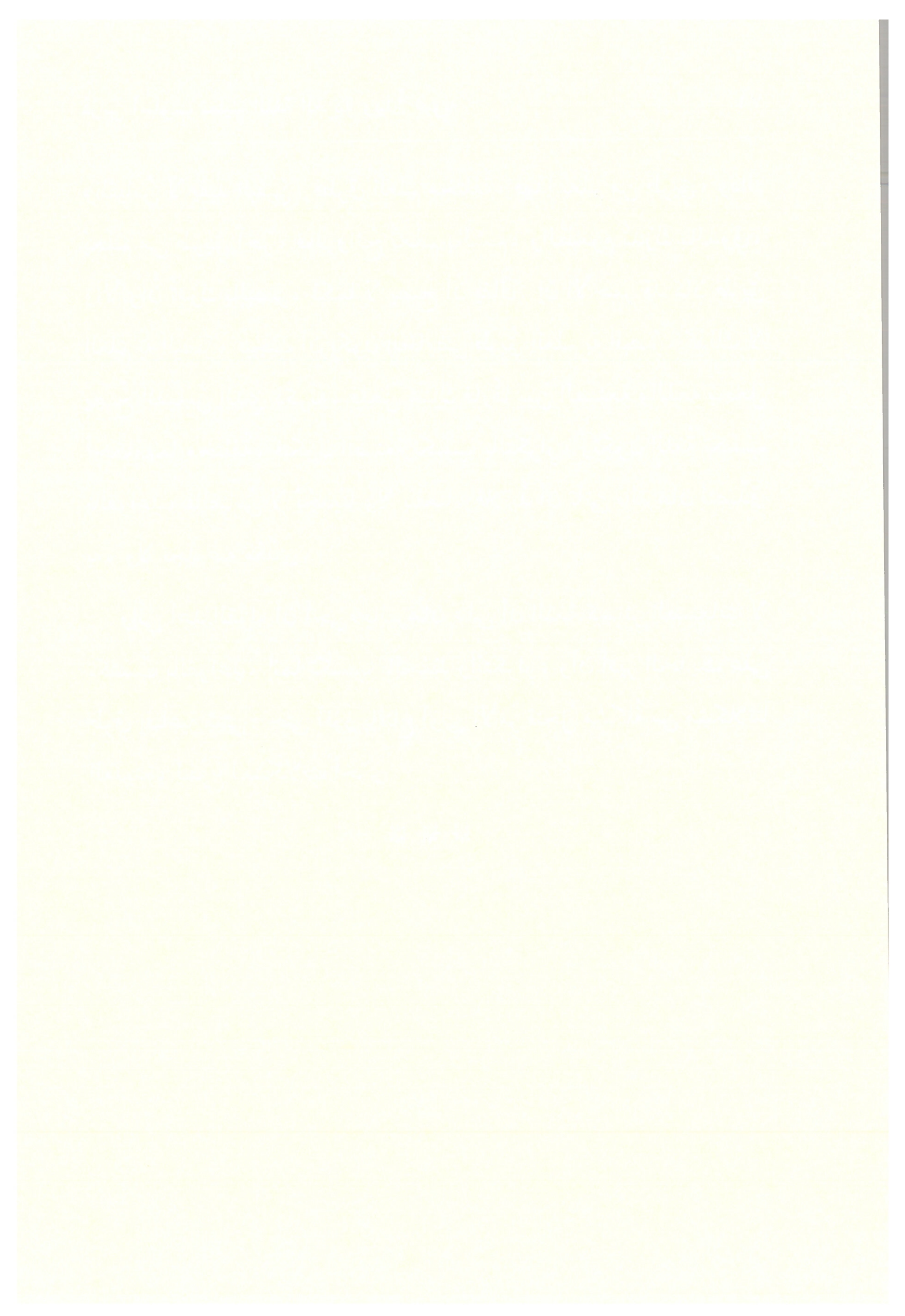
---

(١) السَّدى: ما يمد طولًا في النسيج، واللحمة بالضم والفتح: ما ينسج عرضًا فيه. انظر: المصباح المنير (س. د. ي)، (ل. ح. م)، ١٤٢، ٢٤٨.

والقياسُ لا يفيد اليقينَ، فطرقُ العلمِ مختلفةٌ، فهذا يُعلَم من طريقٍ، وذاك يُعلَم من طريقٍ آخَرَ، فالروائحُ تُعلَم بالشمِّ، والطُّعوم تُدرَك بالذوقِ، والألوانُ تُدرَك بالبصرِ، فكما لا يصحُّ أن يقالَ: إن الأحمر قد كان طريقُ العلمِ به البصرَ، فيجب أن يكون الحامضُ طريقُ العلمِ به البصرَ، كذلك لا يصحُّ القياسُ الذي ذكرتَه، فلعلَّ هناك فارقًا بين الصنعةِ واللغةِ يجعل أحكامَهما مختلفةً، فتكون الصنعةُ تكسَب بالتَّكرارِ، وتكون اللغةُ تكسَب بالقواعدِ، فالقياسُ لا يُجْدينا ولا ينفَعنا، فلا بدَّ أن تأتيَ بالبرهانِ لنصدِّقَ به، ولا نجدَ عنه مَعْدًى.

وإنِّي أعِد القراء أن أجيء بالبرهانِ على أن اللغةَ كسائرِ الصنعاتِ لا تكتسَب بالقواعدِ، إنما تكسَب بالحفظِ والتكرارِ، وأن أديرَ الحديثَ على طرقٍ إقناعيةٍ شتى؛ حتى أفوزَ بإقناعِ أولي الأمرِ فنحلَّ مشكلةً من مشكلاتِنا العديدةِ، لِنفرُغَ لمشكلاتٍ أخرى.





اللغةُ ملَكةٌ والملَكة لا تكتَسب بالقواعدِ بل بالتَّكرارِ

قوَّةُ العلمِ ويُمْنه- ضَعْف الجهلِ وشُؤْمه- استعانةُ الأممِ الراقيةِ بالعلمِ على حلِّ مشاكلِها- عدمُ استعانةِ الأقوام الهمَج به- وجوبُ الاستعانةِ به في حلِّ مشكلة اللُّغةِ- ماهيَّةُ اللُّغةِ ما يقتضيه التكلُّم بها من السرعةِ والإجادةِ- خواصُّ الملَكات السُّرعةُ والإجادة- أسرارُ الملَكات في السرعةِ والإجادةِ- حكمةُ اللَّه في خلْق الملَكاتِ في عبادِه- الملَكاتُ لا تكتسَب بالقواعدِ بل بالتكرارِ- اللُّغة لا تكتسَب إلا بالتكرارِ.

في الأمثالِ العربيةِ: قتلَتْ أرضٌ جاهلَها، وقتَل أرضًا عالِمُها[(١)]. ومعنى ذلك أن مَن سلَك أرضًا وكان جاهلًا بطرقِها ضلَّ وهلَك، ومَن سلَك أرضًا وكان عالمًا بمسالكِها قطَعها ونجا منها. وهذا لا يختصُّ بالأرضِ والمسافرِ، بل يعمُّ كلَّ من يزاوِل أمرًا من الأمورِ، فإن زاوَله عالمًا به تغلَّب عليه، وإن زاوَله عن جهلٍ خاب فيه.

للعلمِ سلطانُه القاهرُ، والمتسلِّح به متسلِّحٌ بسلاحِ الظَّفَرِ، وللجهلِ عَثَراتُه الموبِقةُ، والمتسلِّح به متسلِّح بسلاحٍ مفلولٍ. إن الأممَ التي تحلُّ مشكلاتها

(١) مَثلَان ينسبان لخالد بن الوليد- أو تمثَّل بهما- في محاورته لعمرو بن المسيح الطائي، نسبهما له الطبري في تاريخه ٣/ ٣٦٣، وابن الأثير في الكامل ٢/ ٢٣٩، وأوردهما الجاحظ في البيان والتبيين ٢/ ٣١٨، وابن منظور في لسان العرب (ق. ت. ل)، ١١/ ٥٥٠، دون أن ينسباهما، وأورد الأول الميداني في مجمع الأمثال ٢/ ١٠٨ دون نسبة. والأول يضرب لمن يباشر أمرًا لا علْم له به.

مستضيئةً بنورِ العلمِ تنجَح فيما تحاوِل، وتتغلّب على الصِّعابِ التي تعترِضها، والأمم التي لا تستهدي العلمَ ولا تستشيرُه في مشكلاتها، لا تكاد تحلُّ لها مشكِلةً.

وما الفرقُ بين الأممِ المتحضِّرةِ والأقوامِ الهمَجِ، إلا أن الأولى آمنَت بالعلمِ وبسيطرتِه على الوجودِ، فسعَت للكشفِ والمعرفةِ، وكلّما علمتْ شيئًا استفادت منه في حياتها، وأن الثانية لا تؤمن هذا الإيمانَ بالعلمِ، ولا تعترِف له بهذه القدرةِ، فهي تَحُلُّ مشاكلَها بما يأتيها به عفوُ الخاطرِ، فتعثُر دائمًا ويَلجُ بها العِثارَ.

وخيرُ علاجٍ ما يكون مبنيًّا على طبائعِ الأشياء، فأولُ ما يبدأ به معرفةُ طبيعةِ الشيء، ثم يعالج على حسبِ هذه الطبيعةِ وبنورِ هذه المعرفةِ.

وعلى هذا فخيرُ ما يعمَل لحلِّ مشكلةِ اللغةِ العربيةِ أن تعرفَ طبيعتَها ومن أيِّ جنسٍ هي! وما خصائصُ هذا الجنسِ! وقد أدركتُ ذلك واقتنعتُ به، ونريد أن نُقنِع به القراء.

قضيتان إن آمنتم بهما سلَّمتم معنا بما نريد: إحداهما أن اللغةَ في المتكلِّمين بها مَلَكة. ثانيتهما أن المَلَكةَ لا تكتسَب إلا بالتَّكرارِ لا بالقواعدِ فحسبُ.

إذا استطعتُ أن أقيمَ الدليلَ على هاتين القضيتينِ وصدَّقتم بهما وجَب أن تصدِّقوا أن اللغةَ لا تكتسَب بالقواعدِ فحسب، بل بالتكرارِ والحفظِ والمحادثةِ، وسأحاول ذلك فيما يأتي:

اللغة: أصواتٌ يعبِّر بها كلُّ قومٍ عن أغراضِهم[١]. والتعبيرُ باللغةِ والفهمِ عنها يقتضي أمرين:

١ - السرعةُ؛ فكلَّما خطَر ببالِ المتكلمِ معنًى خطَر اللفظُ الدالُّ على مفرداتِه، وخطَر التركيبُ الدالُّ عليه في وِحاء[٢]، وكلَّما سمع جملةً فهِم معانيَ ألفاظِها وما يدلُّ عليه التركيبُ.

٢ - الإجادة؛ وذلك بأن يكون جاريًا على قوانينِ هذه اللغةِ لا يخطئ فيها، وذلك لا يكفي في أن تكونَ اللغةُ معلومةً فحسب، بل لا بدَّ أن تكونَ مَلَكةً، أي حالَةً راسخةً في النفْسِ؛ لأنها إذا كانت معلومةً عِلْمًا ساذَجًا ولم تَصِرْ ملَكةً، وأراد المتكلِّمُ التعبيرَ عن معنًى، فكَّر وروى[٣] في اللفظِ الذي يدلُّ على ذلك المعنى، واستعرَض الألفاظَ المخزونةَ في حافظتِه حتى يَعثُرَ به، ثم فكَّر فيما يعلَمه من تراكيبِ هذه اللغةِ ليختارَ التركيبَ الذي يفيد ذلك المعنى، ووضَع اللفظَ في هذا التركيبِ، وأعطاه الأحوالَ المناسِبةَ، وذلك يقتضي جهدًا وزمنًا، وربما ينقضي بياضُ النهارِ وسوادُ الليلِ في تعبيرينِ أو ثلاثةٍ، ما دامتِ اللغةُ عِلْمًا ساذَجًا. أما إذا عُمِّقت إلى أن صارت مَلَكةً، فإنه إذا أراد التعبيرَ عن معنًى انثالت عليه الألفاظُ، وانثالت عليه التراكيبُ دون جهدٍ ومشقَّةٍ، سريعًا لا يُبطئ، مصيبًا لا يُخطئ.

---

(١) هذا حدُّ اللغة، على ما عرفها به أبو الفتح عثمان بن جني في الخصائص ١/ ٣٤.

(٢) أي: في سرعة وعجلة، والوحاء الإسراع والبدار، فعله: توحيت أتوحى توحيًا، انظر: تاج العروس (و. ح. ي)، ٤٠/ ١٧٣.

(٣) كذا في المطبوعة وأصل المقالة، ولعلَّها: «وتَروَّى».

وقياس ذلك قياسُ العاملِ الذي يَصُفُّ الحروفَ[1] للطبعِ، فإنه إذا كان مبتدئًا واقتصَر على العلمِ بأمكنةِ الحروفِ، وأراد بعد هذا العلمِ الساذَجِ أن يصفَّ حروفَ كلمةٍ، اقتضاه ذلك من التفكيرِ والجهدِ والزمنِ ما ليس بالقليلِ، وربما انقضى اليومُ ولم يَصُفَّ إلا بضعَ كلماتٍ.

أما إذا تجاوز ذلك إلى أن صار مَلَكةً، فإنك ترى يده تلقُط الحروفَ من هنا ومن هنا، وفكْره يسبِق يدَه، ويدُه تسبِق فكْرَه، حتى يَصُفَّ في الدقيقةِ عدَّةَ كلماتٍ.

وهذا شأنُ الملَكاتِ كلِّها تأتي بالشيء في عجلةٍ وإتقانٍ، وتريك العجبَ العجابَ، ترى الأمر الذي له أجزاء كثيرةٌ ويحتاج إلى فكرٍ في هذه الأجزاء، يأتي به صاحبُ الملَكةِ دون فكرٍ، كأنما هو ساحرٌ يأتي بالخوارقِ.

رآني صديقٌ أميٌّ- كان قد بدأ في تعلُّمِ القراءةِ والكتابةِ- أقرأُ، فهالته السرعةُ والإصابةُ، فقال: أتظنُّني أصدِّقك في أنك تقرأ من هذا الكتابِ؟ لا، إنك تقرأ من حفظِك. أمجنون أنا حتى أصدِّق أنك تقرأ ما لا تحفَظ؟ أفي هذه السرعةِ تعلَم ما هذا الحرفُ وما الذي يليه وهكذا، وتعلم حالاتِه؛ أمفتوحٌ أم مضمومٌ أم مكسورٌ أم ساكنٌ، وإن تركيب ذلك يكون كذا؟ وهَبْكَ عرفتَ هذه الكلمةَ فكيف تعرِف صاحبتَها بهذه السرعةِ،

(١) صف الحروف: تنضيدها وترتيبها ونظمها كلماتٍ في سطور؛ تهيئة لطبعها، ويعرف الآن بالجمع الضوئي (التصويري). انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٣٠٣، الموسوعة العربية العالمية، مواد (تنضيد الحروف، الطباعة، جوتنبرج) ١٥/ ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٥- ٥٥١.

وكيف تجمَع من الحروفِ كلماتٍ ومن الكلماتِ جملًا، منطلِقًا كالسهمِ، مصيبًا كالقضاء؟

وهذا تفكيرٌ سليمٌ لو أغفَلنا من حسابِنا أمْرَ الملَكاتِ، ولكنَّ الملَكاتِ كائناتٌ من كائناتِ هذا الوجودِ، ولها هذا الفعلُ[1] الغريبُ، والسحرُ العجيبُ. إن النجارَ الذي اكتسَب ملَكةَ النِّجارةِ يأتي بأعمالٍ أشدَّ إتقانًا وأسرعَ ممن لم يكتسِب ملَكةَ النجارةِ. إنه يدقُّ المسمارَ بالقَدُومِ مائةَ مرةٍ، فلا تَخِيبُ منها مرةٌ، حتى إن صاحبَه لَيمسِك له المسمارَ وهو يدقُّ آمنًا أن تَفْلِتَ منه ضربةٌ فتصيب يدَه، ومَن لم تكن عنده ملَكةُ النِّجارةِ يدقُّ مائةَ مرةٍ فلا تصيبُ رأسَ المسمارِ منها واحدةٌ.

وإن المرءَ لَيعجَب للحائك كيف يسلُك الخيوطَ في الخيوطِ المشدودةِ بحركةٍ سريعةٍ وإتقانٍ عجيبٍ، لا يُدْخِل الخيطَ في غيرِ موضعِه المرادِ له، ولا يعقِد ولا يقطَع. وإن الملَكةَ لتَدخُلُ في أغلبِ أعمالنا فتجعلُها أعظمَ إتقانًا وأسرعَ، وتجعلنا نأتي من الأعمالِ ما نحتاج إلى آلافِ السنينِ لنعمَله لو لم تكن عندنا هذه الملَكاتُ. فبالملَكةِ نكتب ونقرأ ونتكلَّم ونحسُب ونعمَل في الصناعاتِ المختلفةِ؛ من حياكةٍ وخياطةٍ ونجارةٍ وحِدادةٍ وطباعةٍ، مع الإسراعِ والإجادةِ والإحسانِ.

ولولا الملَكاتُ لما قمنا بهذه الأعمالِ وسواها إلا مع الخَرْقِ والإبطاء، كما أريناك في صفَّافِ الحروفِ الذي لم يكتسِب ملَكةً في صنعتِه. وإن الزمان

---

(١) كذا في أصل المقالة بمجلة الرسالة، العدد (٥٣١)، ٦ سبتمبر ١٩٤٣م، وفي المطبوعة: «العمل».

لأسرعُ من أن ينتظرنا، وحاجُ[1] الحياةِ شديدةُ الإلحاح تتطلَّب السرعةَ والإجادةَ، وإن قوةَ المرء محدودةٌ لا تفي للعملِ بدون ملَكةٍ؛ لأن ما كان من الأعمالِ كذلك يقتضي من المرء جهدًا ومشقَّةً وتفكيرًا تستنفِد من قوّته ومن دمِه وأعصابه، ما هو بحاجةٍ إليه.

وإنها لحكمةٌ من اللَّه عظيمةٌ أن يخلقَ فينا الملَكاتِ فتجعلَنا نُجيبُ مطالبَ الحياةِ المتعددةَ بأقلِّ ما يكون من الزمن، وأيسرَ ما يكون من الجهدِ، وأسرع ما يكون من الفعلِ، لا سيَّما حاجةُ التخاطبِ. فاللَّه أرحمُ بعبادِه من أن يقفَ التخاطبَ على هذه الجهودِ المضنيةِ والمتاعبِ الشاقَّةِ، والتخاطبُ عملٌ دائمٌ، لا تنقضي منه حاجةٌ حتى تتجدَّد حاجٌ، ولا يفرُغ المرء من خطابٍ حتى يستأنفَ خطابًا آخر، ولا يفرغ من فهْم خطابٍ إلا إلى فهمِ مخاطباتٍ أخرى وهلمَّ جرًّا.

لقد قلنا الآن ما يمكن قولُه في أن اللغاتِ في الناسِ ملَكاتٌ يقتدِرون بها على الإفهامِ والفهمِ، وأظن أن القراء آمَنوا بذلك لما أوردتُه من الأدلةِ.

وقد بقي أن أقولَ في القضيةِ الأخرى، وهي أن الملَكةَ لا تكتسَب بقواعدَ وإنما تكتسَب بالمزاولةِ والتكرار: إذا استقريتَ الملَكاتِ ولاحظتَ كيف تتكون، علمتَ أن الملَكةَ لا تكتسَب إلا بالدأبِ والمرانةِ وتكرارِ العملِ، لا بالقوانينِ والعلمِ المجردِ. لاحِظْ صناعةَ صَفِّ حروفِ الطباعةِ، تجدْ أن العاملَ إنما يكتسبها بمزاولةِ صَفِّ الحروفِ والتقاطِ الحرفِ من مكانِه المخصَّصِ له وتكرار ذلك حتى تكتسبَ الملَكةُ، وليس يكسِبها بالعلمِ

---

(١) جمع حاجة.

المجردِ بأن من أراد صَفَّ كلمةٍ فليأخذْ حروفَها المتعددةَ من أماكنِها المخصَّصة لها وهكذا، فإذا أتمَّ صفحةً وضَعها بين ضاغطتينِ ليمنعاها من الشَّتاتِ والانفراطِ.

لاحظْ صناعةَ الموسيقى تجدْها لا تكتَسَبُ بقوانينِها الفنيةِ فحسبُ، فلا تكتَسَب بقولِ الأستاذِ: اضرِب بالخِنْصَرِ والبِنْصَرِ والسَّبابةِ وشُدَّ الأوتارَ؛ إنه بذلك لا يكون عازفًا ولا موسيقيًّا إنما يكون موسيقيًّا إذا زاولَ هذا الضربَ مرارًا وتكرارًا، فأكسَب أصابعَه المرونةَ والسرعةَ والاستجابةَ لما رسَمه في وِحاء، ثم أكسَب نفسَه وذوقَه بذلك المَلَكةَ في الموسيقى وفنِّها الجميلِ.

ولو مكثتَ طولَ عمرِك تقول لمتعلِّم الحياكةِ: شُدَّ الخيوطَ طولًا وأدخِلْ فيها الخيوطَ عَرْضًا، ذاهبًا يَمْنةً وذاهبًا يَسْرةً، لَمَا تعلَّم بذلك شيئًا من الحياكةِ؛ إنما يتعلَّمها بمزاولةِ هذه الأعمالِ حتى تكتسِب يدُه الخفَّةَ والمرانةَ.

ولو ردَّدت على متعلِّم السباحةِ قولَك: اركُضْ برِجْلِك اليمنى في الماء، واضرِبْ بذراعَيْك، لما تعلَّم بذلك السباحةَ، ولو سبَح معتمدًا على هذه القواعدِ لأدركه الغرقُ ولذهَب ضحيةَ القواعدِ والقوانينِ.

الآن علِمنا أن اللغةَ في المتكلِّمين ملَكةٌ، وعلِمنا أن الملَكةَ لا تكتسَب بالقواعدِ، إنما تكتسَب بالمرانةِ والتكرارِ، فيلزَمنا -شئنا أو أبَيْنا- الإقرارُ بأن اللغةَ لا تكتسَب بالقواعدِ، إنما تكتسَب بالحفظِ والتكرارِ، وهو المطلوب الذي حاوَلنا إثباتَه.

أرأيتم أنني كنتُ مصيبًا حين قُلت: يجب أن نحلَّ مشاكلَنا بالعلمِ، ويجب أن نعرفَ طبيعةَ الشيء وخصائصَه لنبنيَ الحلَّ على هذه الطبيعةِ؟ أرأيتم كيف كنا نعلم اللغةَ على غيرِ طبيعتِها؟ أرأيتم كيف كنا نمثِّل دورًا مخجِلًا، فكنا كمَن يطرِق الحديدَ وهو باردٌ فيشقَى ثم يشقَى والحديدُ لا يَنْطرِق معه ولا يَلين، فيهزَأ منه من يراه، ويضحك مِلْءَ شِدْقَيْه، ويرى كيف يُشقِي الجهلُ بطبائعِ الأشياء صاحبَه، ثم لا يحظَى بطائلٍ ولا كبيرِ فائدةٍ؟

أكثِروا من المطالَعةِ في كتبِ الأدبِ، احفَظوا الكثيرَ من أشعارِ العربِ. احفَظوا ما تقدِرون عليه من الخطَبِ. اروُوا الأمثالَ السائرةَ، والنوادرَ البارعةَ، والرسائلَ البليغةَ، والمحاوراتِ العَذْبةَ. اخلُقوا في بيئتكم المدرسيةِ جوًّا عربيًّا لا تتحاوَرون فيه إلا بالعربيةِ، فإن لم يكن ذلك في جميعِ الدروسِ ففي دروسِ اللغةِ العربيةِ.

لتقوموا برواياتٍ تمثيليةٍ تحفَظون أدوارَها، وتستظهِرون محاوراتها، وليمثِّل كلٌّ منكم دورَه باللَّهجةِ العربيةِ والتوقيعِ الخطابيِّ.

لا تكْتَفوا في العامِ الدراسيِّ بحفظِ مقطوعةٍ أو مقطوعتينِ، ولا برسالةٍ أو برسالتينِ، بل فَلُّوا دواوينَ الأدبِ واختاروا واحفَظوا وأسرِفوا في الحفظِ، وطالِعوا وأسرِفوا في المطالَعةِ، واكتبوا الرسائلَ، وحبِّروا المقالاتِ على نمطِ ما تحفظون وغرارِ ما تألفونَ.

بذلك، وبذلك وَحْدَه، تحوزون مَلَكةَ اللغةِ، وتملِكون زمامَ البيانِ.

❀ ❀ ❀

أسلوبُ الفطرةِ في تعليمِ اللغاتِ المِرانةُ والتَّكرارُ

كيف تعلِّم الفطرةُ اللُّغاتِ- موازَنةٌ بين أسلوبِ الفطرةِ في تعليمِ اللُّغاتِ وأسلوبِ مدارسِنا- وجوبُ محاكاةِ الفطرةِ في أسلوبها - ما في المدارس من المطالَعة والمحفوظات قليلٌ لا يجدي - عدمُ عنايةِ المعلِّمين والممتحِنين بحفظ الشواهدِ والمثَل - كلُّ ما في الوجود يشهد للأسلوبِ الذي اخترناه - أمثلةٌ لذلك.

ومن غريبِ الأمرِ أن الطريقَ الذي أشرْنا بسلوكِه، والذي أبان العلمُ أنه لا طريقَ إلى تعلُّمِ اللغاتِ سواه، هو الطريقُ الذي هدَت إليه الفطرةُ وسلكته في تعليمِ الولدانِ لغاتِ آبائهم، وتعليمِ الأجيالِ لغةَ أُممهم، فالفطرةُ اصطَنعت في تعليمِ اللغاتِ طريقَ الحفظِ والتكرارِ، والمرانةِ والاعتيادِ.

ينشأ الطفل فيسمع أبويه وأهلِيه يتكلَّمون بمواضَعاتٍ[١] خاصةٍ فيحفَظها وتتكرَّر على سمعِه، ويعتادها لسانهُ فتصير ملَكةً، وبذلك يحذِق لغةَ قومِه.

(١) المواضعة: هي تواضع أبناء اللغة الواحدة أي اتفاقهم واصطلاحهم على استخدام لغوي معيَّن، فيكون ذلك رضًا وإقرارًا وعرفًا في الاستخدام اللغوي؛ من قولهم: أواضِعُك الرأي، أي أطلعك على رأيي وتطلعني على رأيك. ومذهب المواضعة والاصطلاح أحد المذاهب التي فسِّرت بها نشأة (وَضْع) اللغة، وإليه ذهب ابن جني في تفسيره وضع اللغة ونشأتها. انظر: الخصائص ١/ ٤٥-٤٨، تاج العروس (و. ض. ع) ٢٢/ ٣٤٣، الوضع والاصطلاح في النظرية اللغوية العربية، رسالة دكتوراة غير منشورة، نوقشت بكلية الآداب بالجامعة المستنصرية عام ١٩٩٥م، باسم: عبد الرزاق أحمد الحربي، ١٥-٦٨.

كأن الفطرةَ قد علِمتْ أن اللغةَ في الإنسانِ ملَكةٌ، والملَكة لا تكتسَب إلا بالتكرارِ، فاستعمَلتْ ذلك في تعليمِ أممِ الأرضِ لغاتها، ولم تخطئ مرةً واحدةً فتلجأ إلى طريقِ القواعدِ والقوانينِ؛ لأنها لا تُكسِب الملَكاتِ.

أما نحن فجَهِلْنا ذلك، وأخَذْنا نعلِّم اللغةَ بالقواعدِ والقوانينِ، ولم نلجأ إلى تعليمِها بالحفظِ والتكرارِ، فكانتِ الفطرةُ أقربَ إلى الصوابِ وأبعدَ عن الخطأ، وأثقبَ فكرًا وأسدَّ نظرًا، وكنا أقربَ إلى الخطأ، وأبعدَ عنِ الصوابِ، وأعظمَ خرقًا. وكانتِ الفطرةُ تعلِّم اللغة أثناء المعاملاتِ اليوميةِ؛ من لعبٍ وقضاء حاجٍ، وبيعٍ وشراء؛ أما نحن فقد أحَطْناها بالقوانينِ التي يفنَى العمرُ ولا تفنَى؛ فكانت مقتصدةً أعظمَ الاقتصادِ، وكنا مسرفينَ أشدَّ الإسرافِ.

كانت الفطرةُ تعلِّمها بالتدرُّجِ؛ من الأسهلِ إلى الأصعبِ، ومن البسيطِ إلى المركَّبِ، مراعيةً حالَ المتعلِّم، فتعطيه ما يناسبه ولا يجافي عقلَه. أما نحن فلم نراعِ ذلك بل تَعَمَّدنا مضادَّتَه، فعلَّمنا القواعدَ التي هي فلسفةُ اللغةِ، تُعلَّم بعد تعلُّمِها، ومرتبتُها في الوجودِ متأخرةٌ عنها، فلم تظهر إلا بعد ظهورِ اللغةِ بأزمانٍ؛

أقول: علَّمنا القواعدَ قبل تعلُّم اللغةِ وجعلناها وسيلةً إلى تعلُّمِها، ولم نراعِ حالَ المتعلِّمِ فجئنا بأطفالِ الأقسامِ الابتدائيةِ والتعليمِ الأوَّلي، وأخذنا نعلِّمهم القواعدَ، ونعطيهم من العلم ما ينبو عن أذهانهم؛ فكانت جارية على مقتضى الحكمة، وكنا جارينَ على غيرِ مقتضاها، أو على مقتضى شيء آخرَ، وكانت ميسِّرة كلَّ التيسيرِ، وكنا معَسِّرينَ كلَّ التعسيرِ.

وكانت تعلّمها أثناء سرْدِ الحوادثِ اليوميةِ، وأخبارِ الجيرانِ، والأهلِ والخلّانِ، والمحادثاتِ السارَّةِ والأخبارِ الممتعةِ، وتاريخِ الناسِ ومُلَحِهم، وفي أثناء الأغاني والمدائح والمراثي. وكنا نعلّمها في قواعدَ جافَّةٍ خاليةٍ من كلِّ ذلك، فكانت تعلّمها مع المتعة والمسرَّة. وكنا نعلّمها مع الضِّيق والحرَج. ولما راعت ذلك كلَّه كانت ناجحةً في تعليمِها كلَّ النجاحِ، ولما أهملنا ذلك كله كنا مخفِقينَ كلَّ الإخفاق.

أراني فيما سبق قد أطلتُ المسافةَ في الاستدلالِ، وذكرتُ في البينِ أن اللغةَ ملَكةٌ، وأن الملَكةَ لا تكتسَب إلا بالتكرارِ، وكنت أستطيع أن أختصِر الطريقَ وأقول: لننظرْ إلى الفطرةِ كيف تعلّم اللغةَ، ولنحاكِها فيما تفعل، ولنعملْ كما تعمل.

وإذا نظرنا هذا النظرَ وجدناها تعلّم أبناءنا اللغةَ العاميةَ بالتكرارِ والمحادثةِ، وكذلك كانت تعلّم أطفالَ العربِ لغةَ آبائهم. كانوا يسمعون في طفولتِهم من آبائهم ومخالطِيهم مفرداتِ اللغةِ وأساليبَها، والبليغَ المأثورَ من بيانها، ويتكرَّر ذلك على أسماعِهم، فيحاكونه ويقلّدونه ويتكلَّمون على نهجِه، فيكتسِبون الملَكةَ في اللغةِ بالسماعِ والتكرارِ والحفظِ؛ فإذا الطفلُ الناشئ ولسانُه البادئ جارٍ على هذه اللغةِ لا يخطئ ولا يَشِذُّ، ولو حاوَل جَهْدَه أن يحيدَ عنِ الصوابِ لاستعْصَى ذلك على لسانِه، ولوجَد في ذلك مشقَّةً وعَنَتًا.

إن محاكاةَ الفطرةِ في أعمالها داعيةٌ إلى النجاحِ والتوفيقِ، وكلَّما كان المرء أقربَ إليها كان أقربَ إلى الصوابِ، وأَبعدَ عنِ الخطأ، ويكون خطؤه بقدْر بعْدِه عنها، ومجافاتِه لقوانينِها.

ومن سوء حظّ المتعلّمين أن ما في المدارسِ المصرية مما له تعلُّقٌ بالطريقةِ الطبيعيةِ قد أُهمِل ولم يُعْنَ به، وهو فيها صورةٌ لا معنىً، وشكلٌ لا حقيقةٌ؛ ففي المدارسِ المصريةِ حفْظٌ ومطالَعةٌ، ولكن التلاميذَ يهمِلون ذلك الثَّمْدَ[1] القليلَ الذي فرضَتْه عليهم المدارسُ المصريةُ من المحفوظاتِ، ولا يحفظون إلا النَّزْرَ القليلَ ليقولوه أمام لجنةِ الامتحانِ الشفويِّ. وفيها مطالَعةٌ، ولكن يمرُّ العامُ كلُّه وهم لم يطالعوا إلا صفحاتٍ معدودةً، وفي الكتبِ المقررةِ شواهدُ على النحوِ والصرفِ والبلاغةِ، ولكن التلاميذَ لا يحفظون شاهدًا، ولا يستظهرون مثلًا.

وضعت يدي على خمسةِ تلاميذَ اتفاقًا دون اختيار، وكانوا من تلاميذِ الثقافةِ، وكان علم البيانِ مقررًا عليهم وفيه كثيرٌ من الأمثلةِ والشواهدِ، وسألتهم واحدًا واحدًا عما حفِظوه من شواهدِ البيانِ، فلم يكن منهم من يحفَظ بيتًا واحدًا، ومن المحزنِ أن الممتحِنين لا يقيمون وزنًا لذلك، وأن المدرسينَ لا يقيمون له وزنًا أيضًا، فلا هؤلاء يحتِّمون عليهم حفْظَ الشواهدِ، ولا أولئك يرون المقصِّر في حفظِها مقصرًا في الامتحانِ.

وهذا إهمالٌ عظيمٌ في الحفظِ والتكرارِ، وهو وإن كان محزنًا فإن لهم العذرَ كلَّ العذرِ فيه؛ لأنه ثبَت في أذهانِ الجميعِ معلِّمينَ ومتعلِّمينَ أن المعولَ عليه إنما هو القاعدةُ، فإذا فهِمت وحفِظت فما عداها من حفظِ الشاهدِ والمَثلِ فضلٌ، ولا يعلَمون أن هذا الفضلَ هو الذي إذا عُني بحفظِه وتكرارِه رسم صورةً ذهنيةً، يكتب الناشئ على مثالها، وينسُج على منوالها.

---

(١) أصل الثَّمْد: الماء القليل الذي لا مادة له. انظر: الصحاح (ث. م. د)، ٢/ ٤٥١.

وقد علَّمتني التجرِبةُ أن ما يؤخَذ من المحفوظاتِ في المدارسِ لا يغني التلاميذَ شيئًا، فمِن الواجبِ أن يكلَّف التلاميذُ أن يعكُفوا على بعضِ دواوينِ الأدبِ، فيقرءوها، أو يختاروا منها، ويجمَعوا ما يختارون في كراسةٍ ويحفَظوه ويفهَموا معناه، وتكون هذه الكراسةُ بيدِ التلميذِ عند الامتحانِ شاهدةً على جِدِّه وعملِه، فيقدِّمها للممتحِنِ فيرى أهي كافيةٌ أم غيرُ كافيةٍ، ثم يمتحنه فيها من أوَّلها ومِن وسَطِها ومِن آخرِها؛ ليعلمَ هل حفِظ ما اختار.

وقد علَّمتني التجرِبةُ أيضًا أن ما يؤخذ من المطالَعة في العامِ الدراسيِّ أمام المدرِّسِ لا يغني التلاميذَ شيئًا، فمِن الواجبِ أن يكلَّفوا بكتبٍ يطالعونها أثناء العام الدراسيِّ، ويكتبون آراءهم فيها ويلخِّصون محتوياتها، وكذلك في العُطْلةِ، ويكون لهذا وذاك دخْلٌ في تقديرِ الدرجاتِ.

كلُّ ما في الوجودِ يشهد لي أن اللغةَ إنما تكتسَب بالحفظِ والتكرارِ، وأن القواعدَ لا تغني في اكتسابِ ملَكةِ اللغةِ فتيلًا.

لعلَّك جلستَ إلى بعضِ الممثلينَ واستمعتَ إلى حديثِه فرأيتَه يتكلَّم بالعربيةِ لا يكاد يخطئ، وينحدِر كالسيلِ، ويهدِر كالرعدِ.

ولعلَّك جلستَ إلى بطلٍ من أبطالِ اللغةِ العربيةِ يعرِف قواعدَ النحوِ والصرفِ والبلاغةِ، لا تكاد تخفى عليه منها خافيةٌ، فرأيتَه يتكلَّم بالعاميةِ لا يكاد يُقِيم جملةً، ولا يستطيع أن يَلين لسانُه بالعربيةِ، فعجِبتَ كيف يملِك الأولُ هذا القدْرَ من العربيةِ مع جهلِه، وكيف يقصُر عنه الثاني مع علمِه.

أتدري لم هذا؟ إن الأول زاوَل اللغةَ العربيةَ عملًا، وحفِظ أدوارَه في الرواياتِ، وألقاها ومرن على ذلك فاكتسب مَلَكتها، فإن تكلّم بعدُ صدَر عنِ الملَكةِ فأجاد؛ أما الثاني فعلِم قواعدَ النحوِ والصرفِ والبلاغةِ، ولم يزاوِلِ اللغةَ حفظًا وعملًا، فلم يكتسِبْ ملَكتَها، فكان هذا القصورُ المعيبُ.

أجلستَ مع بعضِ العامةِ الذين يكثرون من قراءةِ الجرائدِ والرواياتِ فرأيتَه يُقِيم لسانَه بالعربيةِ أكثرَ من ذلك النحويِّ الذي جعَل همَّه في القواعدِ والقوانينِ.

ولعلك رأيتَ بعضَ من لا يعرفون علْم العَروضِ والقافيةِ، ولا يعرفون البحورَ وأوزانها، ولا الخبْنَ[١] والطيَّ[٢]، إذا سمع بيتًا مكسورًا أدرك عيبَه بمجرَّدِ سماعِه، وإذا سمع بيتًا صحيحًا أدرك صحَّتَه كذلك؛ ولعلك رأيتَ بعضَ مَن يعرِفون هذه العلومَ لا يهتدون لعيبِ البيتِ أو صحَّتِه إلا إذا أخذوا يتعرَّفون من أيِّ بحرٍ هو ويُجْرونه على أوزانِه. إن ذلك لأن الأولَ تربَّى عنده مقياسٌ ذهنيٌّ لأوزانِ الشعرِ من كثرةِ قراءتِه وحفْظِه، فإذا سمع شعرًا اختلَّ من هذه المقاييسِ أدرك ذلك بذَوْقِه، والآخر لم تُربَّ عنده هذه المقاييسُ بل شغِل بقواعدِ الشعرِ عن حفْظِه وقراءتِه، والقواعدُ لا تربِّي الملَكةَ.

---

(١) الخبْنُ: حذف الساكن الثاني من التفعيلة في الحشو، وهو زحاف يَعْرِض ولا يلزم، ويدخل تفعيلات: (مستفعلن، فاعلن، فاعلاتن، مفعولات). انظر: العروض لابن جني ٦٨، ٧٤، علم العروض والقافية لعبد العزيز عتيق ٤١، ١٧٢، ١٧٣.

(٢) الطيُّ: حذف الرابع الساكن شريطة أن يكون ثاني سببٍ، ويدخل التفعيلتين: (مستفعلن، مفعولات). انظر: العروض لابن جني: ٧٤، ١٢٤، علم العروض والقافية لعبد العزيز عتيق: ٤٧، ٥٩، ٧١، ٨٦، ١٧٣.

إن كثيرًا من علماء العَروضِ لو حاوَلوا نظْمَ بيتٍ من الشعرِ أعجَزهم؛ وإن كثيرًا ممن لا يعرِفون هذا العلمَ يأتي لهم الشعرُ طيعًا منقادًا - والسرُّ ما قلناه وكرَّرْناه من أمرِ الملَكةِ والتكرارِ.

سَلوا كلَّ كاتبٍ يحوك[1] الوشْيَ وينفُث السحرَ، وكلَّ شاعرٍ يقول الشعرَ وينظِم الدُّرَّ، في مصرَ وفي بلادِ الشرقِ: بماذا نِلْتم هذه المنزلةَ ووصَلْتم إلى هذه الدرجةِ من البيانِ؟ يجيبوك بأنهم لم ينالوا هذه المنزلةَ إلا بالقراءةِ الكثيرةِ والحفظِ الكثيرِ، ومزاولةِ الكتابةِ والحديثِ.

إن قوانينَ الوجودِ صارمةٌ نافذةٌ أبديَّةٌ، فمَن سايرَها وعمِل على مقتضاها انتفَع بها وسار على ضوئها إلى التوفيقِ، ومَن جهِلها لحقه الضررُ بهذا الجهلِ، ومن أراد التخلصَ منها وحاول أن يُخضِعَها لإرادتِه، عَنَّى نفسه فيما لا يطاوِعه ولا يجد إليه سبيلًا.



(١) حاك الشاعر الشعر والكاتب الكلام يحوكه، ينسجه ويرصفه ويركبه ويلائم بين أجزائه على نحو خاص، وحاك الحائك الثوب يحيكه إذا نسجه. انظر: لسان العرب (ح. و. ك)، ١٠/ ٤١٨.



هل العربيةُ للعربِ بالطَّبيعةِ

سرُّ إخفاقِ مدارسِنا في تعليمِ اللغاتِ الأجنبيةِ

هل العربيةُ للعربِ بالطَّبيعةِ - إبطالُ ذلك - ليس في استطاعتِنا أن نكوّنَ البيئةَ العربيةَ ولكنْ في استطاعتِنا أن نقارِب - تحميلُ المتعلِّمين أخطاءنا - وجوبُ تجرِبة أسلوبِ المرانةِ والتكرارِ بعد الإخفاقِ في أسلوبِ القواعدِ - تَعدِّي شؤم أسلوبِ القواعدِ إلى تعليمِ اللُّغاتِ الأجنبيةِ - عدمُ استفادتِنا من مدارسِ الجالياتِ بين ظَهْرانَيْنا - تَبِعةُ ذلك.

لقد هال بعضَ علماء العربية ما يرونه من تعلُّمِ ولدانِ الأعرابِ لغتَهم بالطريقةِ الطبيعيةِ؛ إذ يخرجون يتكلَّمون بها لا يخطئون ويُعْرِبون فلا يَلْحنون، ووازَنوا بين هؤلاء الولدان وبين تلاميذِهم الذين يعلِّمونهم على طريقةِ القواعدِ والقوانينِ، فرأوا البونَ شاسعًا، والفرقَ واضحًا: هذا يُصِيب ولا يخطِئ، وهذا يخطئ ولا يكاد يصيب، إذا أخذ الأول بالخطأ لم يطاوِعْه لسانُه، وتعذَّر عليه الخطأ كما يتعذَّر على الآخرِ الصوابُ. رأوا هذه المشاهَدةَ، ووازَنوا هذه الموازنةَ، فذهبوا إلى أن اللغةَ العربيةَ للعربِ ولأبنائهم بالطبيعةِ والفطرةِ، ولغيرِهم بالتعليمِ، وشتَّانَ بين ما هو بالطبيعةِ وما هو بالتعليمِ والتكلُّفِ؛ ولن يبلغَ المتكلِّفُ - وإن بلَغ الغايةَ- شَأو الطَّبَعيِّ الفطريِّ.

وهذا المذهبُ غيرُ صحيحٍ وإن كان أصحابه معذورينَ في الذَّهابِ إليه.

أما العذرُ فلأنهم يُفْنون أعمارَهم في درسِ اللغةِ العربيةِ وقوانينِها وعللِها وأسبابها، يبذلون طاقتَهم ثم لا يجدونهم قد بلَغوا ما يبلُغه ذلك الغلامُ الذي ينشأ في الباديةِ من إجادةِ اللغةِ وامتلاك ناصيةِ الشعرِ والنثرِ.

وأما أن هذا المذهبَ خطأ فيدلُّ عليه أنه لو كانتِ اللغةُ العربيةُ طبيعيةً في العربِ لما تخلَّفت؛ لأن ما بالطبيعةِ والذاتِ لا يتخلَّف. ونحن نحكم بالتخلُّفِ، فلو أخذت صبيانًا من أبناء العربِ وربَّيتهم في فارسَ أو الرومِ لَخرجوا يتكلَّمون الفارسيةَ أو الروميةَ، ولم يحسِنوا شيئًا من العربيةِ؛ وإذًا فليستِ اللغةُ العربيةُ في العربِ وأبنائهم طبيعةً وليست فيهم لذاتهم، ولو أخذت صبيانًا من أبناء فارسَ وربَّيتهم في باديةِ العربِ لَخرجوا يتكلَّمون العربيةَ ولم يعرِفوا شيئًا من لغةِ فارسَ والرومِ. فالصحيحُ من القولِ -إذًا- أن اللغةَ العربيةَ في العربِ وغيرِهم بالتعلُّمِ والاكتسابِ؛ إلا أن الطريقينِ مختلفانِ، فالعربُ يتعلَّمونها بالحفظِ والاختلاطِ وتربيةِ الملَكةِ، والنُّحاةُ يتعلَّمونها بالقواعدِ والقوانينِ، ويهمِلون تربيةَ الملَكةِ، فتكون الطريقةُ الأولى أجدَى وأنفعَ، وتكون الطريقةُ الثانيةُ أخيبَ وأقلَّ جدْوَى.

ونحن ليس في استطاعتِنا أن نكوِّن البيئةَ العربيةَ فنأتي بالطريقةِ الفطريةِ، ولكن في استطاعتِنا أن نقاربَ، وأن نقلِّدَ الطريقةَ الفطريةَ فنحسِنَ التقليدَ، ونكثِرَ مِنَ الحفظِ، ونعملَ على تكوينِ ملَكةِ اللغةِ بالعادةِ والدُّرْبةِ والتَّكرارِ.

أيجمُل برجالِ التعليمِ أن يخطئوا في تعليمِ الولدانِ اللغةَ العربيةَ فيعلِّموا بالقواعدِ ما لا يعلَّم إلا بالتكرارِ والحفظِ ثم يطالبوهم بكتابةِ مواضيعَ تكون جاريةً على أساليبِ اللغةِ، خاليةً مِنَ اللحنِ والغلطِ، فإن لم يستجيبوا لهم لاموهم ونسَبوا إليهم العجزَ والتقصيرَ؟

كيف يكتبون كتابةً جاريةً على أساليبِ العربيةِ ولم تَتكوَّنْ في أذهانهم مقاييسُ ونماذجُ عربيةٌ يكتبون على مثالها؟ وكيف يتكلَّمون كلامًا جاريًا على أساليبِ اللغةِ ولم تَتكوَّنْ في أذهانهم صورٌ ذهنيةٌ تدعوهم للتكلُّمِ على منهاجِها؟ وكيف نطالِبُهم بالسرعةِ والجودةِ في الكلامِ وتوفيرِ الزمنِ والجهدِ وهم لم يكتسِبوا ملَكةَ اللغةِ التي بها يكون ذلك؟

الحقُّ أنكم تستنبِطون الماء من الحجرِ، وتطلبون في الماء جَذْوةَ نارٍ. الحقُّ أنكم تأتون الأمرَ من غيرِ بابِه، وتُلْجِمون الفرسَ من الخلْفِ. الحقُّ أنكم إذ تلومون التلاميذَ على خَيْبتِهم في اللغةِ تلومون غيرَ ملومينَ، وتأخذونهم بذنبٍ أنتم عِلَلُه، وبجريرةٍ أنتم أسبابُها. ولو أنصفْتُم لَلُمْتم الطريقةَ التي علَّمتموهم عليها، أو بالحريِّ: لرجَعْتم باللومِ على أنفسِكم.

يا قومُ، قد جرَّبتم طريقةَ القواعدِ في تعلُّمِ اللغةِ العربيةِ ألفَ مرةٍ، وفي كلِّ مرةٍ تخفِقون، وجرَّبتها الأجيالُ قبلكم كذلك، فجرِّبوا مرةً واحدةً طريقَ الحفظِ والتكرارِ، وأنا كفيلٌ لكم أن تحمَدوا هذه التجرِبةَ، وألا تَعْدِلوا بها غيرَها، ولو بُذِل لكم ما يستطاع للعدولِ عنها إلى طريقتِكم الأولى لم تفعلوا؛ لأنكم قد وجدتم في هذه الطريقةِ النجاحَ حين وجدتم في الأولى الإخفاقَ.

ونحن نعلِّم في مدارسِنا المصريةِ اللغةَ الإنجليزيةَ واللغةَ الفرنسيةَ، كما تعلِّمها مدارسُ الجالياتِ الأجنبيةِ، ولكنَّ الشركاتِ والبنوكَ والمحلاتِ التِّجاريةَ التي تصطنِع هاتين اللغتينِ في الكتابةِ والخطابةِ تفضِّل أن تستخدمَ مَن تخرَّج في المدارسِ الأجنبيةِ على أن تَستخدِمَ مَن تخرَّج في المدارسِ المصريةِ؛ لأن الأولَ يجيد اللغتينِ كتابةً وحديثًا، والثاني أبانتِ التجرِبةُ

أنه لا يجيدهما كأخيه. أتدرون لم ذلك؟ إن شؤم طريقةِ تعليمِ اللغةِ بالقواعدِ قد تعدَّى إلى هاتينِ اللغتينِ، فمدارسُنا المصريةُ تعلِّمهما على طريقةِ حفظِ القواعدِ، أما المدارسُ الأجنبيةُ فتعلِّمهما على الطريقِ الطَّبعيِّ، طريقِ الحفظِ والتكرارِ والمحادثةِ؛ حتى تثبتَهما ملَكتَيْن راسختَيْن في النفسِ، فيجيد تلاميذُها الكتابةَ والحديثَ بهما، ومن أين لتلاميذِ المدارسِ المصريةِ أن يجيدوهما وهم إنما عرَفوا القواعدَ ولم يجعلوهما ملَكتينِ بالحديثِ والتكرارِ؟

ومن ذلك تَعلم أن هذا الإخفاقَ لا يرجِع إلى قصورٍ في عقولِ التلاميذِ المصريينَ، ولا إلى كسلٍ يستولي عليهم، وإنما يرجع إلى هذا الأسلوبِ العقيمِ. وهذا هو السرُّ أيضًا في كثرةِ التلاميذِ الذين يرسُبون في هاتينِ اللغتينِ، فنحن الذين يجنون[١] عليهم، ثم نحمِّلهم جريرةَ عملِنا، ونأخذهم بذنوبِنا.

سمعت أحدَ أبنائي يردِّد صِيغًا من اللغةِ الإنجليزيةِ ويقول: هذا للمذكَّرِ، وهذا للمؤنَّثِ، وهذا للجَمْعِ.

فقلت له: ماذا تفعل؟ قال: أحفَظ درْسَ القواعدِ. قلت له: ما هكذا يكون، ينبغي أن تأتيَ بجُمَلٍ تامَّةٍ من اللغةِ الإنجليزيةِ في مخاطَبةِ المذكَّر

(١) يستخدم الشيخ لغة «يتعاقبون فيكم ملائكة»، وهي لغة بني الحارث بن كعب، وبعضهم ينسبها إلى طيئ أو أزد شَنوءة، يقولون: قاما الزيدان، وقاموا الزيدون، وقمن الهندات. انظر: نتائج الفكر في النحو للسهيلي ١٢٨، التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل ١/ ١٨٨.

ومخاطَبةِ المؤنَّثِ والجمْعِ، وتفهَم معناها وتكرِّرها وتحفَظها، وتتحدَّث بها حتى تكونَ ملَكةً، ثم تأخذَ القاعدةَ منها إن شئتَ. هذا هو الأسلوبُ الفِطْريُّ في تعلُّمِ اللغةِ؛ أما أن تأخذَ اللغةَ من القاعدةِ فهذا ليس طريقًا طبعيًّا. لقد كان يعجِزنا ونحن تلاميذُ أن نحفَظَ قواعدَ اللغةِ العربيةِ، فكنا نستعين عليها باستنتاجِها مما نحفَظ ومما رسَخ في أذهانِنا وصار ملَكة فينا. مثلًا: إذا كنا لا ندري ما عملُ «كان وأخواتها»، وما عملُ «إنَّ وأخواتها»، رجعنا إلى ما رسَخ في نفوسِنا، واستشَرْنا ملَكاتِنا ونُطْقَنا بأمثلةٍ نحفظُها، فيها «كان» و«إن»، ونرى كيف تنطِق بها ألْسِنتُنا، كقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٦]، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

ونستنبِط من ذلك أن «كان» ترفَع الاسمَ وتنصِب الخبرَ، وأن «إنَّ» تنصِب الاسمَ وترفَع الخبرَ، وهذا تقريبٌ لما أريد أن يكونَ في تعليمِ اللغاتِ. أريد أن تُثبَت الأساليبُ والألفاظُ بالحفظِ والتكرارِ حتى تكون ملَكةً، ثم تستنتَج منها القواعدُ، ولا أريد أن تحفَظ القواعدُ لتعلَم منها الأمثلةُ، فإن ذلك لا يجعَلها ملَكةً، إلا أن يلجأ إلى الحفظِ والتكرارِ.

ومن العجبِ أن تمكثَ هذه المدارسُ بين ظَهْرانَينا هذا الدهرَ الطويلَ ونرى أسلوبَها الناجحَ في تعليمِ اللغاتِ، ونلمَسَ نجاحَه ولا نقتبِس منها هذا الأسلوبَ! أيرى قومٌ طائفةً تعمل عملًا فتنجَح، ويعملون هم هذا العملَ فيخِيبون، ولا تدعوهم أنفسَهم لترْك أسلوبهم واقتباسِ أسلوبِ الناجحينَ؟ وأعجبُ من هذا أن ترى هذه المدارسُ أسلوبَنا الخائبَ، وتلمَس خَيْبَته فلا تنصَحنا ولا ترشِدنا إلى الطريقِ القويمِ في تعليمِ اللغاتِ.

أيستطيع أحدٌ أن يرى ضالًّا يمشي على غيرِ الجادَّةِ تَنكّبُه الأحجارُ وتُرْدِيه الحفَر، ولا يقيمه على الجادَّةِ؟!

لستُ أدري أأرجِع باللائمةِ علينا لعدمِ استفادتِنا منهم، أم أرجِع باللائمةِ عليهم لعدم إرشادِنا؟ ولكن يظهر أن بين الجماعاتِ منافسةً كما بين الأفرادِ؛ فلا ترى جماعةٌ جماعةً[1] ضالَّةً وتهديها السبيلَ. فإن كان ذلك كذلك فقد أغناكم اللَّه عن أجنبيٍّ يضنُّ عليكم بالنصيحةِ. وهاكم النصيحةَ من رجلٍ من أنفسِكم محبٍّ لكم يودُّ خيرَكم ويحرِص على نفعِكم، ويَعِزُّ عليه أن تضيعَ جهودُكم وأن تبدَّد أعمارُكم. وهو ناصحٌ أمينٌ؛ فهل أنتم منتصِحون؟

❃ ❃ ❃

(١) سقط من المطبوعة، وأثبتناه من أصل المقال.

ما في الملَكاتِ من أسرارٍ عجيبةٍ

استغلالُ الأسلوبِ الجديدِ في تعليمِ اللُّغاتِ بأجمعِها - بركتُه على التلاميذِ وعلى أهليهم - إمكانُ استغلالِه في مشكلاتنا الأخلاقيةِ والاجتماعيةِ - قوةُ العلمِ - الظنُّ بأن الملَكةَ لا تستطيع الاهتداء إلى التفاصيل الكثيرةِ - إقامةُ الدَّليلِ على إبطالِ ذلك - زَعْم ابن جنِّي أن العربَ كانت تعرِف قواعدَ النحوِ والصرفِ - الردُّ عليه في ذلك - الاطمئنانُ إلى الملكاتِ - بيانُ أن طريقتَنا تجعل علومَ العربيةِ فوق العلم بها ملَكات - انتصارُ العاميَّةِ على العربيةِ بظَفَرِها بأنْ كانت ملَكة - إخفاقُ القرونِ لم يصرِفْنا عنِ الطريقةِ القديمةِ.

لقد استغلَلْنا ما استنبَطْناه من علمٍ يتعلَّق بتعليمِ اللغةِ في تعليمِ اللغةِ العربيةِ وفي تعليمِ اللغةِ الإنجليزيةِ وفي تعليمِ اللغةِ الفرنسيةِ، وأصبَح في استطاعتِنا أن نتَّقيَ الإخفاقَ في تعليمِ اللغةِ الإنجليزيةِ والفرنسيةِ، وأن نتقيَ هذا الرسوبَ الذي يُمْنَى به تلاميذُنا في آخرِ كلِّ عامٍ دراسيٍّ في هاتين اللغتين، والذي يبلغ في بعضِ السنينَ ٧٨٪، ووهَبْنا للتلاميذِ أعمارًا بقدْرِ الأعوامِ التي وَقَيْناهم فيها الرسوبَ والتي كانوا يرسُبون فيها لولا أخذُهم بهذا المنهجِ الجديدِ، ونفَيْنا عنهم وعن أهاليهم ذلك الحزنَ الذي كان يستولي عليهم في آخرِ كلِّ عامٍ دراسيٍّ بهذا الرسوبِ. ووفَّرْنا على أهاليهم تلك الأموالَ التي كانوا ينفقونها في إعادةِ الأعوامِ التي رسَبوا فيها. ومن ذلك يُعلم أن البابَ الواحدَ من العلمِ إذا استغلَّه أهْلُوه كان عظيمَ البركةِ جليلَ النفعِ، وربما كان أجدَى على الأمَّةِ والأفرادِ من كثيرٍ من الخيراتِ الماديةِ.

ولسنا نستغلُّ هذا البابَ من العلمِ في تعليمِ اللُّغاتِ فحسبُ، بل سنستغلُّه في كثيرٍ من مشكلاتِنا الأخلاقيةِ والاجتماعيةِ والسياسيةِ، فيرى كيف يَعْظُم نفعُه، وتَحُلُّ بركتُه، وكيف يجلُب من الخيرِ ما لا يدرِكه الوهمُ، ولا يحصيه العَدُّ.

وهذا وأمثالُه هو الذي جعَلني أؤمِن بالعلمِ وأعظِّمه وأجِلُّه، وأرى أنه ما من خيرٍ للأفرادِ والأممِ إلا وهو مَصْدرُه، وما مِن شرٍّ يصيب الأفرادَ والأممَ إلا وللجهلِ يدٌ فيه، ظهرَت أو خفِيت.

لعلَّ قائلًا يقول: إنك آمنتَ بالملَكةِ في كسْبِ اللغةِ العربيةِ إيمانًا لا تزعزِعه الشُّكوك، وظننتَ أنها تفيدُ في كسْبِ العربيةِ كما تفيد في كسْبِ اللغةِ الإنجليزيةِ والفرنسيةِ، ولم تفطِن إلى ما بين اللغةِ العربيةِ وسائرِ اللغاتِ من فارقٍ!

إن اللغةَ العربيةَ كثيرةُ الأحكامِ، متشعِّبةُ الفروعِ، فلا تستقلُّ الملَكةُ بضبطِ هذه الأحكامِ الكثيرةِ، ولا يضبِطها إلا العلمُ المفصَّلُ بالقواعدِ والقوانينِ، وسأضرِب مثلًا: (لا) العاملة عَمَلَ «إنَّ»؛ فإنَّ شرْطَ عملِها هذا العملَ:

أن تكون نافيةً، أن يكون المنفيُّ الجنسَ، أن يكون نَفْيُه نصًّا، ألا يدخلَ عليها جارٌّ، أن يكونَ اسمُها نكرةً[1]، أن يكون متصلًا بها، أن يكونَ خبرُها نكرةً.

---

(١) في المطبوعة: «أن لا يكون اسمها نكرة»، والمثبت من أصل المقال بمجلة الرسالة، العدد (٥٣٦)، ١١ أكتوبر ١٩٤٣م. وانظر: المقتضب ٤/ ٣٥٧، وشرح التسهيل لابن مالك ٢/ ٥٣.

فإن كانت غيرَ نافيةٍ رُفع ما بعدها، وإن كانت لنفْي الوَحْدةِ عمِلت عملَ «ليس»، نحو: لا رجلَ قائمًا بل رجلانِ. وإن دخَل عليها الخافضُ خفَض ما بعدها، نحو: جئتُ بلا زادٍ. وإن كان الاسمُ معرفةً أو منفصلًا عنها أُهمِلت، نحو[البسيط]:

«لا الدارُ دارٌ ولا الجيرانُ جيرانٌ»(1)

ونحو: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾(2) [الصافات: 47].

هذه أحكامٌ كثيرةٌ ولا يُسعِف بها إلا معرفةُ القواعدِ، فأمّا الملَكةُ فلا تستطيع الاهتداء إلى هذه التفاصيلِ.

ونحن نقول لهذا القائلِ: إنك أسأت الظنَّ إذ ظننتَ أن الملَكةَ لا تهتدي إلى الفروقِ الخفيةِ والمداخلِ المتشعِّبةِ، إنها أهدَى من القَطا(3)، وإن الإنسانَ يطمئنُّ إليها في الهدايةِ إلى ما يشتجِر من الأحكامِ. إنها تَهدي المرء إلى الصوابِ الجاري على القواعدِ وإن لم يعرفِ القواعدَ. انظر إلى

---

(1) عجز بيت لجرير، ويروى بتمامه:

حَيِّ المنازلَ إذ لا نبتغي بدلًا ... بالدارِ دارًا ولا الجيرانِ جيرانًا

والشاهد في: مجيء اسم «لا» معرفة. انظر: ديوان جرير بشرح ابن حبيب 1/ 160، ارتشاف الضَّرَب 3/ 1210، شرح شذور الذهب لابن هشام 256، شرح شواهد المغني للسيوطي 2/ 711.

(2) انظر: اللمحة شرح الملحة 1/ 490، شرح التصريح على التوضيح 1/ 339.

(3) طائر معروف يشبه الحمام أو ضرب منه، يضرب به المثل فيقال: فلان أهدى من القطا، يطلب الماء من مسيرة عشرة أيام ولا يخطئه. انظر: المصباح المنير (ق. ط. و)، التمثيل والمحاضرة 370.

الهمزاتِ في علمِ الرسمِ كيف يكتب المرء «يَئِد» على ياء، و«يأمَن» على ألف، و«يؤمن» على واو، تهديه ملَكتُه التي اكتسبَها بالمرانةِ والتكرارِ وإن لم يعلمِ القاعدةَ أو لم يستحضِرْها.

وكذلك الألِفاتُ ما يكتَب منها ألفًا وما يكتب منها ياءً، فيكتُب المرء «رمَى» بالياء، و«دعا» بالألِف، كأن في منطقةِ اللاشعور فينا عالمًا يعلَم أن «رمَى» أصلُها الياء فتكتب ياء، و«دعا» أصلها الواو فتكتب ألفًا، ويكتب «أغزى» بالياء كأن عالمًا فينا يعلَم أنها وإن كان أصلُها الواو إلا أنه لما قيل فيها: «أغزَيْتُه» كتبت ياء.

يَعْجَبُ المرءُ كيف تهدي الملَكة إلى الحقِّ كأنما تَسْتملي من قواعدَ مكتوبةٍ، وتمتاز الملَكةُ عن القواعدِ بالسرعةِ التي لا يبلُغها الرجوعُ إلى القواعدِ. ولقد بلَغ من اهتداء الملَكةِ أنها تكتب المطَّرد على حسبِ القاعدةِ، والشاذَّ على ما قيل من شذوذٍ، فهي تكتُب «داود» بواو واحدة، وتكتب «بعمرو» بواو بعدها، وتكتب «مائة» بألف زائدة وإن لم تكنْ في هجائها.

فإذا كانت هدايةُ الملَكةِ ما ذكرنا في الكتابةِ فلا عَجَبَ أن تَهدي مثلَ هذه الهدايةِ في الكلامِ.

قال أبو الفتح عثمانُ بن جنِّي (ت٣٩٢ هـ) في كتابه (الخصائص): «سألت الشَّجري يومًا فقلت له: يا أبا عبدِ اللّه، كيف تقول: ضربتُ أخاك؟ فقال: كذاك. فقلت: أفتقول: ضربتُ أخوك؟ قال: لا أقول «أخوك» أبدًا. قلت: فكيف تقول: ضربني أخوك؟ فقال: كذاك. فقلت: ألستَ زعمتَ أنك

لا تقول «أخوك» أبدًا؟ فقال: إيش ذا؟ اختلفت جهتا الكلامِ»[١].

نقل أبو الفتح هذه الحكايةَ في بابٍ عنوانه «أن العرب قد أرادت من العِلَلِ والأغراضِ ما نَسَبْنَاه إليها وحَمَلْناه عليها»[٢]. واستُدلَّ بها على أن العربَ كانت تعرِف قواعدَ النحوِ والصرفِ، ورأى أن ما قاله الأعرابيُّ نظيرُ قولِ النحاةِ: صار المفعولُ فاعلًا[٣].

وليس ما ذهَب إليه ابن جِنِّي من الاستنتاجِ صحيحًا، فهذا العربيُّ لم يكن يرجِع إلى قواعدَ، وإنَّما كان يرجِع إلى ملَكتِه يستشيرها ويستهديها فنبَتْ ملَكتُه عن: ضربتَ أخوك، ولم تَنْبُ عن: ضربني أخوك، كما تنبو ملَكةُ الكاتبِ عن كتابةِ الهمزةِ في: «يئد» بالواو وفي «يؤمن» بالياء، وإن لم يعرِفِ القاعدةَ ولم يَستشِرْها.

لعلَّنا بذلك قد طمأنَّا الذين يشفِقون على اللغةِ من أن يَكِلوها إلى الملَكةِ، ويرون أن الملَكةَ لا تكفي هاديةً؛ لأن مذاهبَ العربيةِ مختلطةٌ متشعِّبةٌ قريبٌ بعضُها من بعضٍ، لا يفرِّق بينها إلا العقلُ الواعي والعلمُ البصيرُ. وقدَّمنا من الأدلَّةِ ما يدلُّ على أنهم إذا وكَلوها إلى الملَكةِ فقد وكَلوها إلى حفيظٍ أمينٍ[٤].

---

(١) انظر: الخصائص ١/٢٥١، وحكى القصة نفسها في ١/٧٧، لكنه ذكر أنه سأل أبا عبد اللّه محمد بن العساف العقيلي الجوثي التميمي.

(٢) انظر: الخصائص ١/٢٣٨.

(٣) انظر: الخصائص ١/٢٥١.

(٤) هذا الذي توصَّل إليه الشيخ محمد عرفة لا يناقض ما اعترض به على ابن جني فيما سبق.

فليتأمَّلْ هؤلاء الذين يَصُدُّون -أو سيَصُدُّون- عن طريقِنا فيما نحاول، أننا نحاول كسبًا جديدًا للغةِ العربيةِ، فبدلَ أن نقتصِر[1] على علمِ قواعدِها، تكون لنا ملَكةٌ وهيئةٌ راسخةٌ من هيئاتِ نفوسِنا وجزءًا من كيانِنا، وتكون هذه الملَكةُ دِعامةً لفهمِ اللغةِ وتذوُّقِها، ولفهمِ قواعدِها وأصولها دون جهدٍ أو عَناءٍ.

ليعلَم هؤلاء الذين يحبون النحوَ والصرفَ وقواعدَ البلاغةِ، أننا نحبُّ النحوَ والصرفَ وقواعدَ البلاغةِ أكثرَ منهم، حين ندعو إلى تعليمِ اللغةِ بأسلوبٍ يكوِّن ملَكةَ اللغةِ في نفوسِ المتعلمينَ، لأننا نريد أن نجعلَ قواعدَ النحوِ والصرفِ والبلاغةِ فوق العلمِ بها؛ ملَكاتٍ لنا مختلطةً بلحومِنا ودمائِنا، غائصةً في أعماقِ نفوسِنا وداخلةً في منطقةِ اللاشعورِ فينا.

لقد ظفِرتِ اللغةُ العاميةُ مع عدمِ الاحتفالِ بها والعنايةِ بتعلُّمِها بأنْ صارت ملَكةً في النفوسِ، فغلبَتِ اللغةَ العربيةَ التي لم تظفَرْ بذلك إلى الآن، وكانت لغةَ البيتِ والشارعِ والمدرسةِ، ولغةَ الدرسِ والخطابِ، ولغةَ الأغاني والمسرحِ والخيَّالةِ، وليس للغةِ العربيةِ حظٌّ في شيءٍ من ذلك إلا أنها لغةُ الكتابةِ، والذين يكتبون بها قليلٌ، وهذا القليلُ لم يكتسِبِ الكتابةَ مِنَ القواعدِ وتعلُّمها، إنما اكتسبَها من طريقِ الحفظِ والقراءةِ وتذوُّقِ الكثيرِ من بليغِ المنثورِ والمنظومِ، ومن مزاولةِ الكتابةِ والكلامِ بها، حتى اكتسَب نماذجَ ذهنيةً في نفسِه ومناطقِ اللاشعورِ فيه، يتكلَّم على مقتضاها، وينسُج على منوالِها، فلِمَ لا نسعى لرفْعِ اللغةِ العربيةِ من مجالها الضيقِ المحدودِ إلى المجالِ الواسعِ غيرِ المحدودِ؟

---

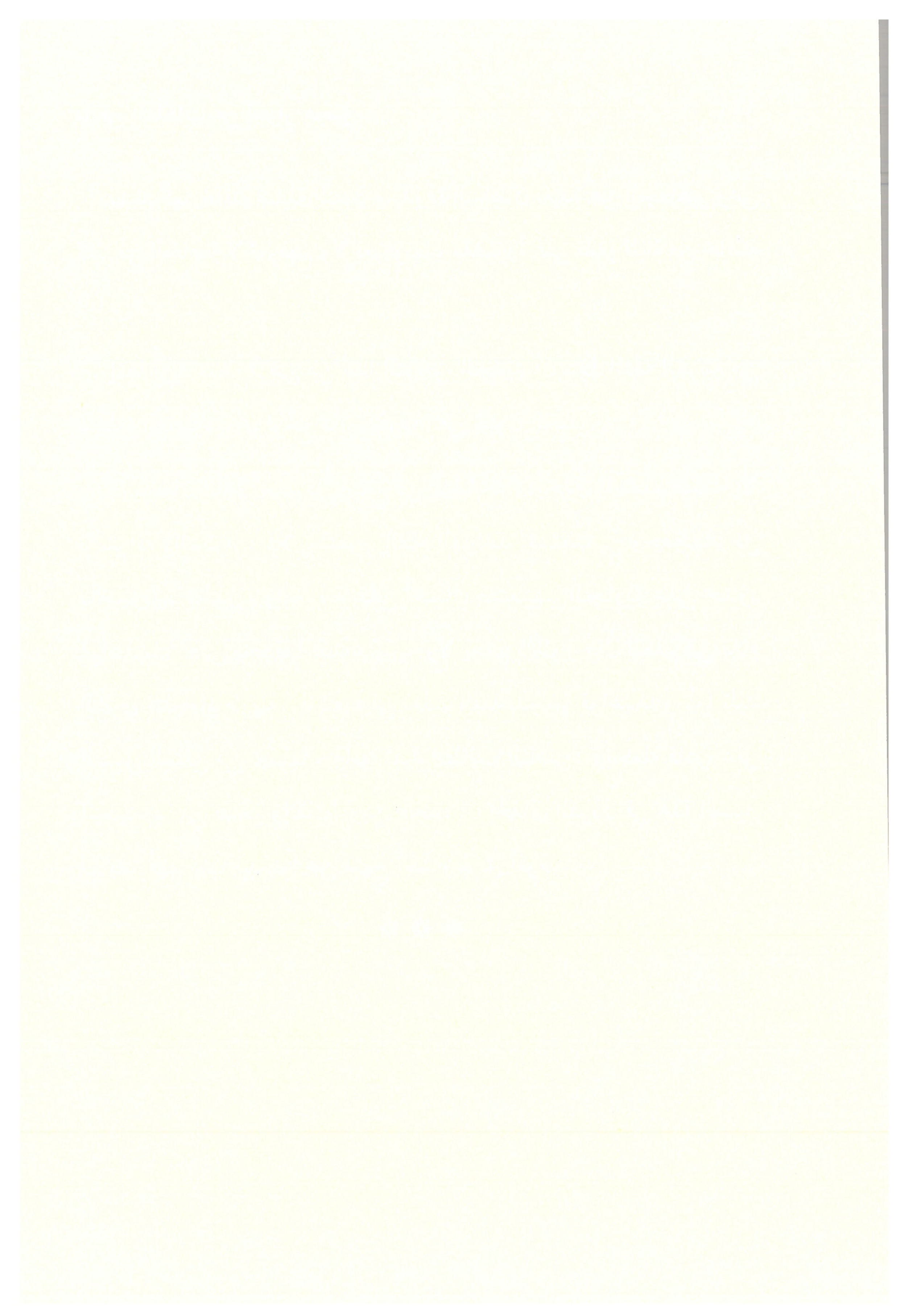
(١) في المطبوعة: «تقصر»، والمثبت من أصل المقال، بمجلة الرسالة، عدد (٥٣٦)، ١١ أكتوبر ١٩٤٣م.

لم نتركْها خافتةً ضئيلةَ النفوذِ محدودةَ السلطانِ بعيدةً عن الجماهيرِ وعن كثيرٍ من الخاصةِ لا تعرفهم ولا يعرفونها، مقصورةً على طبقةٍ قليلةٍ من خاصَّة الناسِ؟

إنما أُريد بما أعرِض من هذا التوجيهِ الجديدِ أن نُنقِذَ اللغةَ العربيةَ من سيطرةِ العاميةِ، وأن نوسِّعَ دائرةَ نفوذِها في شئون الحياةِ.

يا سبحان اللَّهِ! أيعلَم كلُّ صانعٍ في الدنيا أنه لا يحذِق المتعلِّم صنعتَه إلا بالمرانةِ والتكرارِ، فلا يكتفوا بإلقاء القواعدِ للمتعلِّمينَ وحفظِها، بل يأخذونهم بالدُّرْبةِ والمرانةِ على أعمالِ صنعتِهم الجاريةِ على حدودِ قواعدِها، حتى يحذِقوا صناعتَهم، ولا يعلَم ذلك رجالُ العلمِ في بلادِ الشرقِ منذ آمادٍ طويلةٍ، فاكتفَوا في تعليمِ اللغةِ بدراسةِ قواعدِها ورأوا تلك السبيلَ المثْلَى في تعلُّمِها، وأنها تفيد الطالبَ الناشئ، وتجعلُه قادرًا على التعبيرِ بها في صحَّةٍ وإتقانٍ! ومِن عجبٍ أن إخفاقَ القرونِ في هذا السبيلِ لم يصرِفْهم عنها ليبحَثوا عن منهجٍ أسدَّ وطريقٍ أقومَ.





المنهجُ الجديدُ في تعليمِ العربية

ما فيه من فوائدَ

وجوب حذْفِ القواعدِ من التعليمِ الابتدائيِّ والأوَّلي- استبدال المطالَعة والحفظ بها - اختيارُ المحفوظات المناسِبة لأذهانِ التلاميذِ - تعهُّد المدرِّسِ التلاميذَ فيما يحفظون - وجوبُ بقاء التعليمِ بالحفظِ والمطالَعةِ في التعليمِ الثانويِّ- زيادةُ القواعدِ - مرحلةُ التعليمِ العالي - خلْق جوٍّ عربيٍّ - ما في المنهجِ الجديدِ من متعةٍ للتلاميذِ والمدرسينَ - ما فيه من فوائدَ أخلاقيةٍ واجتماعيةٍ ومن علمٍ بالحياةِ - خلوُّ درْسِ القواعدِ من ذلك كلِّه - التحذيرُ من الأدبِ المكشوفِ الماجن - بيانُ ضررِه بالأخلاقِ - الملكةُ الآن لأولي الأمرِ.

لا أريد أن أضعَ منهاجًا مفصَّلًا للطريقةِ الجديدةِ لتعليمِ اللغةِ العربيةِ، وإنَّما أريد أن أضعَ قواعدَ مجملةً تتَّبَع عند وضْع هذا المنهاجِ، وهذه مبنيَّةٌ على ما تقدَّم بحثُه.

يجب أن يحذَف درسُ القواعدِ من التعليمِ الابتدائيِّ والأوَّليِّ؛ لأن القواعدَ -كما قلنا- لا تُكسِب ملَكةَ اللغةِ وإنما هي فلسفةٌ للُّغةِ وضوابطُ[١]؛ فمِن

(١) نعم، إن القواعد النحوية (قواعد الأبواب) ضوابط وقوانين هادية إلى معرفة النحو والعربية، ولا غنى لمتعلم النحو أو معلِّمه عنها، ولا يمكن طرحها، فهي وإن كانت في رأي الشيخ عرفة لا تكسب الملكة اللغوية، لكن الحذق بها مع المران والدُّرْبة، هو الذي يُكْسِبها.

الواجبِ أن نسعى في أن نكوّن للناشئ ملَكةَ اللغةِ أولًا .

يجب أن نَستبدِلَ بالقواعدِ المطالَعةَ الكثيرةَ والحفظَ الكثيرَ والمحادثةَ والمحاورةَ .

ويجب أن يُختار للتلاميذِ ما يحفَظونه بحيث يكون مناسبًا لأذهانهم لا يعلو عليها ، وتؤلَّف لهم محاوراتٌ يحفظونها ويتحاورون بها وتكون مما تكثُر في الكلامِ ويُحتاج إليها في الخطابِ .

ويجب أن يعلَم أن هذه المحفوظاتِ تحفَظ لتكونَ نموذجًا ذهنيًا ليقيسَ عليه كلامَه من حيث لا يدري ، فيجِب أن يُعْنَى بهذه النماذجِ فتحفَظ صحيحةً لا غلطَ فيها ، ومعرَبةً لا لحنَ فيها ، فإنه إذا حفِظها ملحونةً ارتسَم النموذجُ في ذهنِه كذلك ، فنسَج على مِنوالِه ، وأنفَق مما اكتسَب .

ويجب على المدرسِ أن يراعيَ تلاميذَه ويعلَم موطنَ الضعفِ في لغتِهم ، ويزوِّدَهم بما يزيل ضَعْفَهم ، ويُقوِّم لسانَهم ، فإن رأى منهم أنهم يَجرُّون الفاعلَ في أحاديثِهم فلْيَعلَمْ أنهم بحاجةٍ إلى أن يحفظوا كثيرًا من المقطوعاتِ فيها أمثلةٌ كثيرةٌ للفاعلِ ، وليأخُذْهم بحفظِها صحيحةً غيرَ ملحونةٍ .

أما مرحلةُ التعليمِ الثانويِّ فيجب أن يظلَّ التعليمُ بالحفظِ والمطالَعةِ فيها ، ويزاد عليه قواعدُ اللغةِ ، ولكن ليستِ القواعدُ التي بين أيدي التلاميذِ الآن ، بل القواعدُ التي سأقدِّم مشروعَها ، والتي تجمع الصدقَ والوضوحَ والسهولةَ[١] .

---

(١) يعكس هذا الكلام رأيَ الشيخ محمد عرفة في الطريقة التي كانت تقدَّم بها القواعد =

ويجب ألّا تقلَّ العنايةُ بالحفظِ والمطالَعةِ في هذه المرحلةِ بل يجب أن تزيدَ، ويجب -كما قلنا- أن تؤلَّف لهم رواياتٌ تمثيليةٌ أخلاقيةٌ يحفظون أدوارَها ويقومون بتمثيلِها.

ويجب -كما قلنا أيضًا- أن يكلَّف التلاميذُ بنَخْل دواوينِ الأدبِ واختيارِ أحسنِ ما يقرءون، ثم بحفظِ أحسنَ ما يختارون، وأن تعطَى درجاتٌ لمن قام بعملٍ ذاتيٍّ في أيامِ العطلةِ الصيفيةِ في الحفظِ والمطالعةِ.

أما مرحلةُ التعليمِ العالي فهي كمرحلةِ التعليمِ الثانويِّ في الحفظِ والمطالعةِ والقواعدِ، ولكن يجب أن يتعمَّق في درْسِ هذه القواعدِ، وفي بحثِ أصولها وفي الموازنةِ بين مذاهبِ العلماء فيها.

فأما خلْق جوٍّ عربيٍّ في المدرسةِ أو في دروسِ اللغةِ العربيةِ خاصةً، لا يتكلَّم الطلابُ والمدرسون فيه إلا باللغةِ العربيةِ، وتكليفُ التلاميذِ بكتابةِ موضوعاتٍ ينشئونها -فقد سبقتِ الإشارةُ إليها[1]، فيجِب أن تدخلَ في البرنامجِ الجديدِ لتعليمِ اللغةِ.

وينبغي أن يعلَم أن تكليفَ التلاميذِ بموضوعاتٍ ينشئونها ليس لغوًا في طريقتِنا كما هو لغوٌ في الطريقةِ الأولَى؛ لأن الطريقةَ الأولى كانت تكلِّفهم الإنشاء وليست عندهم معانٍ يكتبونها؛ لقلةِ ما يطالعون وما يحفظون، وليست عندهم ملَكةُ اللغةِ العربيةِ.

= النحوية واللغوية في المقررات الدراسية في المرحلة الثانوية، ويكشِف عن اتجاهه ومنحاه في قضية تيسير النحو واللغة.

(١) انظر ما تقدم صـ ٦٠-٦٢، ٨٠، ١٠٣، ١٠٤.

أما في الطريقةِ الحديثةِ فهي تكلِّفهم الإنشاء، وعندهم معانٍ خلقَتْها المطالَعةُ والحفظُ والاطِّلاعُ على آراء العلماء، وهي تكلِّفهم، وقد رسَخت في نفوسِهم مَلَكةُ اللغةِ بالحفظِ والمطالعةِ والحديثِ، وسيَسرُّ ذلك المعلمينَ ويجعل الدرسَ لذيذًا؛ لأنهم إذ يصححون كراساتِ التلاميذِ في الإنشاء لا يطَّلعون على لغوٍ من القول يُقْذِي العينَ ويُغْثِي النفْسَ كما كان في الماضي؛ بل يطَّلعون على أقوالٍ لها حرمتُها ومكانتُها؛ إذ هي بنتُ المطالَعةِ الكثيرةِ والدرسِ الطويلِ.

ذلك أسلوبٌ نراه كفيلًا بكلِّ ما نريد من رقيٍّ لغويٍّ وبيانيٍّ؛ لأنه كفيلٌ بتكوينِ الملَكاتِ في اللغةِ والبيانِ، وبهذه الملَكاتِ تُفهَم اللغةُ وتُتذوَّق أولًا، وتفهَم أصولُها وقواعدُها ثانيًا، ونراه كفيلًا أيضًا بإمتاعِ المتعلِّمِ وإلْذاذِه، وكفيلًا بفائدتِه وخيرِه.

فأمَّا إمتاعُ التعليمِ بهذه الطريقةِ فإنها تعلِّم اللغةَ بآدابِ السالفينَ وحِكَمِ الماضينَ، وبالأشعارِ البليغةِ والخطَبِ الفصيحةِ، وتواريخِ الأممِ، وفي كلِّ ذلك غذاءٌ للعقلِ، وإرضاءٌ للقلبِ، وإمتاعٌ للعاطفةِ؛ والمرء يُسَرُّ ويأنَس للخبرِ الغريبِ والنادرةِ الطريفةِ، والحكمةِ النافعةِ والمَثلِ السائرِ، والجوابِ المسْكِتِ، والقولِ السَّديدِ والرأيِ الحميدِ، وهذا كلُّه جعَل في الطريقةِ الحديثةِ مادةً لتعليمِ اللغةِ، يطالِع فيه ويحفَظ منه، والقولُ إن كان بليغًا، والمعاني إذا كانت رائعةً أَنِسَتْ بها النفوسُ، وهَشَّت لها، ووجَدت فيها المتعةَ واللذَّةَ.

وأما الفائدةُ فأيُّ فائدةٍ أعظمَ من التأدبِ بآدابِ العلماء، والاطلاعِ على حكمةِ الحكماء، والانتفاعِ بتجارِبِ ذوي التجارِبِ، وهذا كلُّه جعل في طريقِ

تعليمِ اللغةِ، والكلمةُ الطيبةُ إذا نزَلت بالنفسِ وعلِقت بها واستوثَقت منها، وأيقَنت بها، فإنها تكون هاديةً ومرشدةً، ينتفع بها المرء في غدوِّه ورواحِه، وصُبْحه ومَسائه، كما قال اللّه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

والمرء ما عاش بحاجةٍ إلى الأدبِ الذي به تُعْمَر القلوبُ، وتزكو النفوسُ. قال عبد اللّه بن المقفَّع: «ولسنا إلى ما يمسِك أرماقَنا من المأكلِ والمشربِ بأحوجَ منا إلى ما يثبِّت عقولَنا مِنَ الأدبِ الذي به تَفاوُت العقولِ. وليس غذاء الطعامِ بأسرعَ في نباتِ الجسدِ من غذاء الأدبِ في نباتِ العقلِ. ولسنا بالكدِّ في طلبِ المتاعِ الذي يُلْتَمس به دفعُ الضررِ والغلبةُ، بأحقَّ منا بالكدِّ في طلبِ العلمِ الذي يُلْتَمَس به صلاحُ الدينِ والدنيا»[1].

وإن المرء قد يفيده الحرفُ من الأدبِ ويكون أردَّ عليه من جيشٍ عَرَمْرمٍ. قال معاويةُ: لقد رأيتُني وأنا أَهُمُّ بالفرارِ يوم صِفِّينَ وما يمنعني إلا قولُ الشاعرِ [الوافر]:

وَقوْلي كلَّما جَشَأَتْ وجاشَتْ   مكانَكِ تُحْمَدِي أو تَسْتَريحي[2]

---

(١) انظر: الأدب الصَّغير والأدب الكبير: ١٥.

(٢) أخرج هذا الأثر عن معاوية رضي اللّه عنه بنحوه: ابن دريد في المجتنى ٢٧، والقالي في الأمالي ١/ ٢٥٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٩/ ١٣٧، ١٣٨، ٧٤/ ٧٣، ٧٤. والبيت لعمرو ابن الإطنابة -وهي أمُّه- الخَزرجي، ضمن قصيدة تعد من أجود ما قيل في الصبر في مواطن الحروب. وجشأت: هاجت. وجاشت: اضطربت من الحزن والفزع.

فأين من هذا كلِّه القواعدُ وليس فيها متعةٌ ولا لذةٌ، فليست عاطفيةً حتى تثيرَ العاطفةَ والوجدانَ، وليست عقليةً حتى تكونَ فيها لذةُ المعقولاتِ لمن اعتاد المعقولاتِ، إنَّما اللغةُ مواضَعةٌ واصطلاحٌ[١]، وقواعدُ اللغةِ شرحٌ وتفسيرٌ لهذا الاصطلاحِ، وليس فيها إلا بعضُ عللٍ عقليةٍ، وهذا مغمورٌ وسْطَ عِلَلٍ مدخولةٍ، وأسبابٍ غيرِ معقولةٍ.

وكما أنها لا تثير لذةً ولا تبعثَ متعةً، كذلك لا تحصُل منها على فائدةٍ. وما الفائدةُ منها وهي ليست حكمةً ولا مثلًا ولا شرحًا لقانونٍ من قوانينِ الحياةِ، وهي تبعُد عن الحياةِ وتجارِبها وعن محيطِها الواسعِ، وبحرِها الجيَّاشِ المضطربِ، وإن الذي يقرأ كتابًا في القواعدِ كالأشموني[٢] أو المطوّل[٣]، يخرجْ منه ولم يستفد خبرةً بالحياةِ، بخلافِ من يقرأ كتابًا كـ«الكامل»[٤] لأبي العباس المبرِّد، أو «البيان والتبيين»[٥]، لأبي عثمانَ عمرِو بن بحرٍ

(١) انظر هامش صـ ٨١.

(٢) يعني شرح الأشموني على ألفية ابن مالك.

(٣) لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت: ٧٩١هـ)، وهو شرح على التلخيص للخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، الذي هو تلخيص لمفتاح العلوم للسكاكي (ت ٦٢٦هـ)، وقسم علم المعاني من المطول يشتمل على ما يدرس في النحو وفي علم المعاني. وقد طبع الكتاب قديمًا بالمطبعة العامرة بإستانبول عام ١٢٦٨هـ، وطبع بالقاهرة سنة ١٣٣٠هـ، ونشرته مكتبة الرشد عام ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م، بتحقيق عبد العزيز بن محمد السالم، أحمد بن صالح السديس في خمس مجلدات.

(٤) الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)، أحد كتب الأدب، طبع قديمًا في ليدن ١٨٦٦هـ، وأفضل طبعاته طبعة مؤسسة الرسالة ببيروت، سنة ١٤٠٦هـ، بتحقيق محمد أحمد الدالي.

(٥) طبع الكتاب قديمًا، بالمطبعة العلمية بالقاهرة بين سنتي ١٣١١، ١٣١٣هـ، بتصحيح =

الجاحظِ؛ فإنه يخرج منه بحكمةِ الدهورِ وعِظَةِ الأيامِ، ومهما فاته فلن تفوته حكمةٌ أو تجرِبةٌ، هي عُصارةُ عصورٍ وخلاصةُ دهورٍ.

وما أظنُّ الأممَ الإسلاميةَ مُنِيتْ بما مُنِيت به، بعد العزِّ والمنَعَةِ والقوةِ والصَّولةِ، إلا مِن شغْلِ علمائها وخاصَّتها طولَ عمرِهم بكُتبِ القواعدِ التي لا تكشِف إلا عن طرفٍ يسيرٍ جدًّا من هذا الكونِ الواسعِ، أو بالحريِّ: لا تكشِف عن شيء إلا عن مواضَعةٍ واصطلاحٍ[1] وتفسيرٍ لهذه المواضَعةِ وهذا الاصطلاحِ[2]، ومن انصرافِهم عن هذا الكونِ الفسيحِ وعلومِه، وعِلَلِ حوادثِه وأسبابها، وشئونِ النفوسِ وخواطرِها، وتزكيتِها وتَدْسيتِها[3].

ما هذا الحظُّ العاثرُ؟! قد جمَع لنا المتقدِّمون أبوابَ الحكمةِ وتجارِبَ الحياةِ، وكانوا أحرصَ الناسِ على حفظِها حتى ينتفعَ بها مَن بعدَهم، وكان حريًّا بنا أن نغترِفَ من هذه المواردِ العذْبةِ، ونستقي من هذا السَّلسبيل الصافي، ولكن كان نصيبُ النافعِ منا الإعراضَ والنفورَ، ونصيبُ غيرِه الإقبالَ عليه، والكَلَفَ به[4].

= حسن الفاكهاني ومحمد الزهري الغمراوي، وطبع بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بين سنتي ١٣٦٧، ١٣٦٩هـ، وهي أفضل طبعة له، والصواب في اسم الكتاب هو «البيان والتبيُّن».

(١) في المطبوعة: «وإصلاح»، والمثبت من أصل المقال بمجلة الرسالة، العدد (٥٣٧)، ١٨ أكتوبر ١٩٤٣م.

(٢) في المطبوعة «الإصلاح»، والمثبت من أصل المقال.

(٣) التدسية، من دسَّ نفسه، إذا أخملها بترك الصدقة والطاعة فأخفاها وأغواها. انظر: تهذيب اللغة (د. س. س)، ١٢/ ١٩٨، مقاييس اللغة (د. س. س)، ٢/ ٣٧٧.

(٤) أي: الولَع والاهتمام.

أيُّ شيءٍ أنفعُ وأجدَى من حِكَمٍ أفادها أصحابُها بعد التجارِبِ المُرَّةِ، والعِثارِ والخيبةِ، والتردِّي والسقوطِ، وبعد النَّيلِ تارةً، والإخفاقِ تاراتٍ، وبعد أن ذاقوا حلوَ الحياةِ ومرَّها وصفوَها وشَوْبَها، فأفادتهم التجارِبُ علمًا، فجمَعوا هذا العلمَ في جملٍ قصيرةٍ وحروفٍ قليلةٍ، لتكونَ أقلَّ كُلْفةً وأيسرَ مَئُونةً، ليسهُلَ حفظُها وادخارُها إلى وقتِ الحاجةِ لِيُنتفعَ بها؟

وهنا شيءٌ أرى من الواجبِ عليَّ أن أنبِّه عليه، وهو أن اسمَ الأدبِ أطلِق كذبًا وزورًا على تلك الأبياتِ من النَّسيبِ والغزلِ المذكَّرِ والمؤنَّثِ، وعلى وصفِ الخمرِ ومجالسِ الشَّرابِ، وعلى أبياتِ البِطالةِ والعجزِ، وعلى أخبارِ الفسَّاقِ والمُجَّانِ، فيجب أن يتحرَّز من هذه ولا تدخُل في مطالعاتِ التلاميذِ ومحفوظاتهم؛ لأن تأثيرَها على الأخلاقِ شديدٌ، وإفسادَها للمروءات عظيمٌ، فكم من مستقيمٍ أخرَجه عكوفُه على هذا الأدبِ الزائفِ عن استقامتِه، وكم من جادٍّ همُّه المعالي وعظائمُ الأمورِ، صيَّره هذا الأدبُ الزائفُ مسِفًّا ضئيلَ الأملِ. ولا يصحُّ أن ينكَر هذا كلُّه؛ فإن تأثيرَ القولِ في النفوسِ عظيمٌ، ونقضَه للأسبابِ المتينةِ قويٌّ. ويجب إذ آمَنَّا بتأثيرِ الكلمةِ الصالحةِ في النفوسِ أن نؤمِنَ بتأثيرِ الكلمةِ السيئةِ فيها أيضًا؛ فإن المعانيَ إذا كُسِيت الألفاظَ الرائعةَ والنَّظْمَ البارعَ، كانت حبيبةً إلى كلِّ نفْسٍ، وكانت مَداخِلُها إلى النفوسِ خفيةً، ونقضُها للطبائعِ المحْكمةِ عظيمًا. ولأمرٍ ما حذَّر النبيُّ ﷺ من كلِّ منافقٍ جهولِ القلبِ عليمِ اللسانِ[1].

---

(١) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد في المسند (١٤٣)، (٣١٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلفظ: «إن أخوفَ ما أخاف على أُمَّتي كلُّ منافق عليم اللسان».

وإذا دار الأمر بين تعليمِ اللغةِ من سبيلِ هذا الأدبِ الزائفِ وجَهْلها، اختَرْنا جَهْلَها؛ لأنه خيرٌ لنا أن نعرِب في أفعالنا ونلحَن في أقوالِنا، من أن نعربَ في أقوالِنا ونلحَن في أفعالِنا.

الآن أشعرُ بما يشعرُ به مَن كان يحمل حملًا ثقيلًا فمشَى به أميالًا في صحراء محْرِقةٍ حتى ارفضَّ[1] عرقًا، وتقطَّعت أنفاسُه تعبًا، ثم بلَغ به مستراحًا ومَقيلًا، فرمَى بحملِه وجلَس بجانبِه، فشعَر بالراحةِ من ذلك الحملِ الذي بهَظه[2] وأنقضَ ظَهْرَه.

أشعر بذلك لأنه كان حملًا ثقيلًا تلك الأمانة التي أخذ اللَّه على العلماء ألا يدَّخِروا نصحًا ولا يجدوا سبيلًا لرفعِ أممهم إلا أرشَدوهم إليه، ونبَّهوهم عليه، وقد كان يحزِنني أن تعلِّمني التجارِبُ ما علَّمتني من قيمةِ القواعدِ في تعليمِ اللغةِ، وضرر الشغل بها عن علومِ الحياةِ ثم أكتُمه ولا أبوحُ به. والآن وللهِ الحمدُ قد خرجتُ من عهدةِ الكتمانِ، فبُحْت به، ولم أكتفِ بالبوحِ حتى أعلنتُه، ولم أكتفِ بالإعلانِ حتى دَلَلْت عليه، ولم أكتفِ بالتدليلِ حتى صرفتُ القولَ على وجوهٍ شتَّى من التزيينِ والتقبيحِ والترغيبِ والتحذيرِ. الآن وضعتُ الحملَ وحمَله آخرون.

* * *

---

(١) ارفضَّ العرق يرفضُّ ارفضاضًا: سال وتتابع سيلانه. انظر: تهذيب اللغة (ر. ف. ض)، ١٢/ ١٤.

(٢) بَهَظه الحِمْل يَبْهَظه، إذا أثقله حتى عجز عنه، وأمرٌ باهظٌ: شاقٌّ. انظر: الصحاح (ب. هـ. ظ)، ٣/ ١١٧١.



الصِّعابُ التي تعترِض تكوينَ ملَكةِ اللغةِ العربيةِ وتَذْليلُها

مما يعوق تكوينَ ملكةِ اللغةِ العربيةِ اللغةُ العاميةُ- العاميةُ سبقت فصارت ملَكةً- فبعيد بعد أن نجعل العربيةَ ملكَةً لأن العاميَّة تحريفٌ للعربية - العاميَّةُ تلاحقنا في كلِّ مكانٍ فهي لغةُ البيتِ والشارعِ والمدرسةِ والأغاني . . . إلخ - ردُّ هذه الشُّبهةِ بوقوعِ ذلك - كثيرٌ منا اكتسَب العربيةَ بعد أنِ اكتسَب العاميةَ- اللغةُ ملَكةٌ والملَكةُ لا تكسَب إلا بالتكرارِ قانونٌ ثابت فيجب ردُّ ما خالَفه- هل امتنعتِ المدارسُ الأجنبيةُ من تعليم اللُّغاتِ بحجَّة أن لغتَهم صارت ملَكةً فتمنَع غيرها - ردُّ ذلك بجوازِ تغييرِ الأخلاقِ- والأخلاقُ ملكاتٌ - على أننا أخذنا بالحَيْطةِ فجمَعْنا بين الأسلوبينِ - وجوبُ جعْلِ لغةِ الأغاني والمسرحِ والصحفِ الأسبوعية لغةً عربيةً - العربيةُ لا تعوق تكوينَ مَلَكةِ العربيةِ بل تُعاوِنه.

لقد فاتحتُ كثيرًا من رجالِ التربيةِ والتعليمِ في مصرَ ممن يهتمون باللغةِ العربيةِ في هذا الأسلوبِ الجديدِ في تعليمِ اللغةِ، فكانوا جميعًا يُلْقونني بشبهةٍ واحدةٍ قدِ اتفَق الجميعُ عليها، وكأنهم تواطئوا على إيرادِها؛ أورَدها مَن لا أحصي ممن يهتمون بشئونِ التعليمِ في مصرَ، ومن قبل ذلك أوردتُها فيما بيني وبين نفسي.

وهذا دليلٌ على قوَّتها، وقربِ تناولها؛ فإنِ استطعتُ حلَّها فقد ذَلَّلتُ عقبةً كَأْداءَ[1] في سبيلِ الإصلاحِ المنشودِ.

(١) عقبة كأداء، بوزن «فَعْلاء»، وكئود: ذات مشقة، وتكاءدته الأمور: إذا شقَّت عليه. انظر: تهذيب اللغة (ك. أ. د)، ١٠/ ١٧٨.

يقولون جميعًا: مما يعوق تكوين ملَكةِ اللغةِ العربيةِ عندنا أن اللغةَ العامِّيةَ سبَقت إلينا فتكوَّنت مَلَكتُها فينا، واللغةُ العاميةُ تحريفٌ للُّغةِ العربيةِ وخطأ فيها، فإذا تكونت فينا مَلَكةُ اللغةِ العاميةِ فهذا معناه تَكوُّنُ مَلَكةِ الخطأ في اللغةِ العربيةِ، وإذا سبَق الخطأ وصار مَلَكةً تثبَّت ورسَخ، فإذا أُريد بعد ذلك إصلاحُه وصيرورةُ هذا الإصلاحِ مَلَكةً تعذَّر واستحال.

ومما يَزيد الأمرَ تعذرًا واستحالةً أننا لا نزال نسمَع من والدِينا وإخوانِنا وأهلِينا ومخالطِينا وأصدقائنا اللغةَ العاميةَ، يتكلَّمون بها ونكلِّمهم، ونتفاهَم بها ونتساجَل، فهي لغةُ البيتِ ولغةُ الشارعِ ولغةُ المدرسةِ ولغةُ الأغاني ولغةُ التمثيلِ ولغةُ الخيَّالةِ ولغةُ بعضِ المجلَّاتِ، أينما تَوجَّهْنا وجَدْناها، وحيثما أصغَيْنا سمِعْناها، وهذا معناه أن الخطأ واللحنَ في اللغةِ العربيةِ سبَق فصار مَلَكةً؛ وأنه لا يزال يتردَّد على أسماعِنا ونردِّده فيزداد رسوخًا، حتى يختلِطَ بلحمِنا ودَمِنا، فمهما فعَلْنا للتخلُّصِ من مَلَكةِ اللحنِ والخطأ لم يُفِدْنا، وكلَّما هرَبْنا من هذه الملَكةِ لحِقَتْنا؛ فأين النجاةُ وأين المهربُ؟ وهي قد سبَقت فاستحكَمت فينا، ثم أخَذت تُلاحِقنا وتُسابِقنا وتتغلَّب علينا وتَقْهَرنا. ولعل هذا هو الذي دعا الأقدمينَ إلى أن ييأسوا من تكوين ملَكةِ العربيةِ الصحيحةِ، فاكتفَوا بالقواعدِ والقوانينِ التي تضبِط أمرَها مع التنبيهِ والمعالَجةِ، ولم يَسْموا إلى ملَكتِها التي تعطي التعبيرَ بها دون قصدٍ ولا تنبُّهٍ ولا تكلُّفٍ ولا علاجٍ.

وإني أقول في جوابِ هذه الشبهة: إن ذلك يبين عسرَ اكتسابِ مَلَكةِ العربيةِ لا تَعذُّرَه، والمشقَّةَ لا الاستحالةَ؛ فإنه لوِ استحال تكوينُ ملَكةِ العربيةِ مع سَبْقِ ملَكةِ العاميةِ لمَا وقَع لأحدٍ. وكيف وقد وقَع للكثيرِ من رجالِ اللغةِ والأدبِ؟

حقًّا إن هذا دليلٌ على التعسُّرِ لا على التعذُّرِ؛ بدليلِ أننا نجد خلافَه من نفوسِنا وخلطائنا؛ فكثيرٌ منا قد سبَقت إليه في صباه مَلَكةُ العاميةِ، ثم عُني بكسبِ مَلَكةِ اللغةِ العربيةِ بالحفظِ والمرانةِ فاكتسَبها، ولم تَمنَعْه الملَكةُ السابقةُ أن يكتسِبَ الملَكةَ اللاحقةَ؛ بل إنِّي لأزعُم أنه لا يكتُبُ الكُتَّاب، ولا يُشعِرِ الشُّعراء، ولا يخطُب الخطباء باللغةِ العربيةِ، إلا بفضلِ الملَكةِ التي اكتسَبوها من القراءةِ والحفظِ والاعتيادِ، والتي قاومت ملَكاتِ العاميةِ في نفوسِهم فغلَبتها وظهَرت عليها لا بفضلِ القواعدِ وَحْدَها.

لقد قام الدليلُ على أنْ لا سبيلَ إلى اكتسابِ اللغةِ إلا هذا السبيلُ، وهو أن اللغةَ ملَكةٌ والملَكة لا تكتسَب إلا بالتكرارِ، فإذا تعيَّن هذا السبيلُ بالدليلِ فلا معنَى لتصيُّدِ الشُّبهِ من هنا ومن هنا، للهروبِ مما أوجَبه الدليلُ وعيَّنه الحُجَّةُ.

وهل توقَّفتِ المدارسُ الأجنبيةُ عن تعليم تلاميذِها لغةً غيرَ لغتهم بطريقِ الحفظِ والحديثِ بحجةِ أن لغتَهم صارت مَلَكةً فيهم فلا يمكن أن يكتسِبوا مَلَكةَ لغةٍ أخرى؟ الواقعُ أن مِن الناسِ مَن يجيد لغاتٍ كثيرةً وكلُّها ملَكاتٌ فيه، وقد اكتسَبها بطريقِ المحادثةِ والحفظِ، ولم تزاحِمْ مَلَكةُ لغةٍ[1] مَلَكةَ لغةٍ أخرى عنده، وإن كانت مَلَكةُ بعضِ اللغاتِ عنده أقوى من بعضٍ فذلك لا يعنينا؛ لأننا في أصلِ تحصيلِ الملَكةِ لا في جودتها والمفاضلةِ بين الملَكاتِ بعضِها وبعضٍ.

إن علماء الأخلاقِ قد جزَموا بإمكانِ تغييرِ الأخلاقِ وقالوا: إنه يمكن أن يكونَ الجبانُ شجاعًا، والبخيلُ كريمًا والشَّرِهُ عفيفًا، والأخلاقُ ملَكاتٌ

(١) في المطبوعة: «اللغة»، والمثبت من أصل المقال بمجلة الرسالة، العدد (٥٣٨)، ٢٥ أكتوبر ١٩٤٣م.

والخلقُ الذَّميمُ تحريفٌ للخُلقِ الفاضلِ، ورأوا أن التكرارَ كفيلٌ بالتغييرِ، وما على الجبانِ إلا أن يتشجَّع ويعملَ أعمالَ الشجعانِ، وما على البخيلِ إلا أن يَتسخَّى ويعملَ أعمالَ الأسخياء، ليكتسبَ الخلُقَ الجديدَ، ويتخلَّى عن الخلُقِ القديمِ.

فإذا كانوا قد جزَموا بذلك في الأخلاقِ غيرَ متحفِّظينَ ولا متردِّدين فما أحرانا أن نجزمَ به في اللغةِ ولا نتحفَّظ ولا نتردَّد.

وليس ما يتصيَّدونه من شُبهٍ مما يشفع لنا أن نترك الطريقَ الطبيعيَّ لتعليمِ اللغةِ ونسلُك طريقًا غيرَ طبيعيٍّ في تعليمِها.

على أننا قد أخذْنا بالحيطةِ والحزمِ، فلم نمنعِ القواعدَ إلا في الأقسامِ الأوليةِ والابتدائيةِ، فجعَلنا التعليمَ فيها بالحفظِ والمحادثةِ فقط، أما في مرحلة التعليم الثانوي وفي مرحلة التعليم العالي فقد جمعنا بين الطريقينِ؛ طريقِ القواعدِ وطريقِ الحفظِ، فإن لم يَزِدْها قوةً فليس يزيدُها ضعفًا، وهذا ريثما يَبين للناسِ بالتجرِبةِ صلاحيةُ الطريقةِ الجديدةِ لتعليمِ اللغةِ، فإذا بان صلاحُها رفَعْنا القواعدَ إلا من التعليمِ العالي ومن المعاهدِ التي تُعِدُّ معلِّمَ اللغةِ العربيةِ.

إن ما يقال من الصِّعابِ التي تعترِض مَن يريد تكوينَ مَلَكةِ اللغةِ العربيةِ، والتي تدفَع بعضَ الناسِ إلى أن يظنوا أنها تجعَل اكتسابَ هذه الملَكةِ متعذرًا ومحالًا، إنَّما هو مَنْبَهَةٌ على مواضعِ العِقابِ في تحصيلِها، وليس من المحالِ التغلبُ على شتى هذه العِقابِ والصعابِ. فلْنتلافَ منها ما يمكن ملافاتُه، ولنبقِ للزمنِ ما عليه أن يُتِمَّه، وما دمْنا نبذلُ الجهدَ المضنيَ والزمنَ الكثيرَ

الذي هو رأس مالِنا في تعلُّمِ العربيةِ، فعلينا أن نزيلَ من معوِّقاتِ هذه الملَكةِ كلَّ ما تمكِن إزالتُه، وإلا كنا نهدِم باليسارِ ما نشيِّده باليمينِ.

علينا أن نجعلَ أغانينا باللغةِ العربيةِ ولا نسمحَ للغةِ العاميةِ أن تكونَ لغةَ الغناء، ما دام ذلك يعوق ملَكةَ العربيةِ ونحن نبذُل الجهدَ والمالَ في اكتسابها، ولا يصحُّ أن نتناقضَ في أفعالِنا.

علينا أن نجعلَ رواياتِ المسرحِ باللغةِ العربيةِ ولا نسمحَ للعاميةِ أن تحتلَّ المسرحَ؛ لأن ذلك يعوق مَلَكةَ العربيةِ فينا، ونحن قد ملأنا برامجَ تعليمِنا باللغةِ العربيةِ لنتعلَّمَها، ولا نحبُّ أن نكونَ كذلك الممثلِ الذي ظهَر على المسرحِ وبيدِه اليمنى أوراقٌ، وبيده اليسرى أوراقٌ، فقيل له: ما بيدِك اليمنَى؟ فقال: قوانينُ. قيل له: وما بيدك اليسرى؟ قال: نُسَخ هذه القوانين.

علينا أن نحتِّم أن تكونَ لغةُ المجلاتِ هي اللغةَ العربيةَ، ولا نسمح للعاميةِ أن تحتلَّ مكانًا فيها؛ للعلَّةِ نفسها، وهكذا الشأن في الإذاعةِ وفي الصحافةِ.

وإذا كنا إذا بَنَيْنا بناء وشيَّدْناه، وبذَلْنا المالَ في تشييدٍ لا نسمَح لغيرِنا أن يهدِمَه، فحَرِيٌّ بنا ونحن نبني مَلَكةَ اللغةِ العربيةِ فينا، وننفِق في سبيلِها كرائمَ أموالِنا وزهرةَ شبابِنا وأعزَّ جهودِنا، ألا نسمحَ للمسارحِ ودورِ التمثيلِ والمغنِّينَ والمغنياتِ أن يهدِموا ما نَبْنيه.

وعلينا أن نبكِّر في تلقينِ التلاميذِ نماذجَ من المحفوظاتِ العربيةِ، وقد سهَّلت مدارسُ رياضِ الأطفالِ علينا هذه المهمَّةَ، فالتلاميذُ يذهبون إليها في سنٍّ مبكِّرةٍ، فعلينا أن نهتبِلَ هذه الفرصةَ[١] فنعطيهم نماذجَ يحفظونها

---

(١) أي: نستغلها وننتهزها.

تناسب عقولَهم، ولا تَنْبو عن أفهامهم، ما دامتِ الملَكةُ السابقةُ لها القوةُ والسيطرةُ والغلبةُ.

لقد غالَى بعضُهم وزعَم أن تكوينَ مَلَكةٍ عربيةٍ أسهلُ على الإنجليزيِّ والفرنسيِّ منها على مَن سبَقت له مَلَكةُ العاميةِ، وذلك مبالَغةٌ في اليأسِ والقنوطِ.

إن العاميةَ لا يمكن أن تقفَ في طريقِ تكوينِ ملَكةِ العربيةِ، بل إنِّي أرى أنها عونٌ على اللغةِ العربيةِ، فمِن السهلِ على مَن عرَف العاميةَ أن يتعلَّم اللغةَ العربيةَ وتكون عونًا له عليها، وتطيعه مَلَكةُ اللغةِ العربيةِ بأيسرَ وأسهلَ مما تطيع مَن لا يعرِفها ولا يتكلَّم بها كالإنجليزيِّ والفرنسيِّ؛ لأن معرفةَ العاميةِ تعلِّم الكثيرَ من العربيةِ فتعلِّم كثيرًا من مفرداتها؛ كالأرضِ والسماء، والسَّحابِ والماء، والثرى والهواء، وتعلِّم كثيرًا من أساليبِها وتراكيبِها، والنقصُ الذي دخَل على ملَكاتِه من تحريفِ العاميةِ شيءٌ سهلٌ يمكن مُلافاتُه إذا سار في الطريقِ المستقيمِ، عكْسَ مَن لم يعرِفْ شيئًا مِنَ العاميةِ، فيبدأ في تعلُّمِ العربيةِ من جديدٍ؛ كلمةً كلمةً، وحرفًا حرفًا، وأسلوبًا أسلوبًا، ونظمًا نظمًا.

قد بلَغْنا في نصرةِ الأسلوبِ الجديدِ في تعليمِ اللغةِ العربيةِ المبلغَ الذي وسِعه الجهدُ وإن كان قليلًا، وبلَغه الوسْعُ وإن كان ضئيلًا، ولم نترك حجةً تفيد نصرتَه إلا تَتبَّعناها، ولا شبهةً تدلُّ على خلافِه إلا أفسدناها. ولم يبقَ للمهيمنينَ على تعليمِ اللغةِ العربيةِ في وَزارةِ المعارفِ وفي الجامعةِ وفي الأزهرِ، عذرٌ في ألَّا يَصطَنِعوا هذا الأسلوبَ؛ فقد وضَح الحقُّ وانخذَل الباطلُ، ولم يَبْقَ عذرٌ لمعتذرٍ.

تأييدُ رجالِ التربيةِ في القديمِ والحديثِ

لما ندعو إليه من تعليمِ اللغةِ بالتكرارِ

وجوبُ تضافرِ الأدلَّةِ لنزعِ الباطلِ الموروثِ - الأسلوبُ الجديدُ هو أسلوبُ العصورِ الزاهرةِ لسَلَفِنا - الكتابُ لسيبويه يكوِّن الملكةَ بما فيه من شواهدَ تَزيد على الألْفِ عدًّا- ويعمل القوانين بما فيه من قواعدَ - اسم النحويِّ كان مرادفًا لاسم الأديبِ.

وكذلك كان الأمرُ في تعليمِ البيانِ العربيِّ - تحذيرُ ابن الاثيرِ من الاقتصارِ على القواعدِ وإيجابُه اكتسابَ الذوقِ العربيِّ بالمزاوَلةِ - قول ابن السِّكِّيتِ - قولُ الجاحظِ أن عويصَ النحوِ لا يجْدِي في المعاملاتِ ولا يرغَب فيه إلا مَن لا يحتاج إلى تعرُّفِ جَسيماتِ الأمورِ - قولُ عمارِ الكلبيِّ - حدوثُ أسلوبِ القواعدِ في العصورِ المظلمةِ - قول ابنِ خلدونَ - قول روسُّو وغوستاف لوبون وسبِنْسر - أساليبُ الأمةِ في الحياةِ عنوانٌ عليها - الأخذُ بالأسلوبِ المطابقِ لطبائعِ الأشياء- اتقاء حكْم الأمم علينا.

لقد كان يكفيني ما قدَّمْتُه من الأدلَّةِ على فسادِ الطَّريقةِ الرسميَّةِ في تعليمِ اللغةِ العربيةِ، وعلى صحَّةِ الطَّريقةِ التي بيَّنْتُها وأفَضْتُ الكلامَ فيها، ولكني أعلم أن المألوفَ شديدٌ انتزاعُه، وأن النفوسَ تكره العدولَ عما وجَدت عليه الآباء والأجدادَ إلى شيء لم يكونوا عليه، وربما خيِّل إليها أن السَّلفَ الماضينَ لم يؤثِروا هذه الطريقةَ على ما عداها إلا لفضلِها وكفايتِها، وأن العدولَ عنها إلى غيرِها عدولٌ عن الحقِّ النافعِ إلى الباطلِ

الضارِّ، ولو كان في هذا الجديدِ خيرٌ لسبَق إليه الأولون.

وإنِّي أُريد أن أبينَ أن الطريقةَ التي ندعو إليها هي طريقةُ العصورِ الزاهرةِ لسَلَفِنا الماضينَ، وأنها لم تتغير إلى الطريقةِ التي نشكو منها إلا في عصورِ الضَّعْفِ والتأخُّرِ العلميِّ، وأُريد أن أذكرَ من أقوالِ السَّلفِ ما يشهَد بتفضيلِ هذه الطريقةِ على طريقةِ القواعدِ والقوانينِ؛ لأُونِسَ القلوبَ بأن ما أدعو إليه ليس شيئًا أنا ابتدعتُه وإنَّما هو شيءٌ كان يعلمه رجالُ العلمِ والتربيةِ من آبائنا السابقينَ.

وأريد بعد ذلك أن أذكرَ بعضَ أقوالِ رجالِ التربيةِ من علماء الغربِ في هذا الموضوعِ؛ لأبيِّنَ أن العقلَ والدليلَ ورجالَ العلمِ في القديمِ، ورجالَ التربيةِ في الحديثِ وعلماءَ الشرقِ والغربِ- على أن اللغاتِ إنما تكتسَب بالتكرارِ والحفظِ والتعهدِ والدربة، وأن القواعدَ والقوانينَ لا تُكسِب مَلَكةَ اللغةِ.

أولُ كتابٍ وضِع في نحوِ اللغةِ العربيةِ وعكَفت عليه الأجيالُ هو «الكتاب» لسيبويه، وهو كتابٌ مليءٌ بالشَّواهدِ من كلامِ العربِ، شعرِها ونثرِها، وكلامِ اللَّهِ وكلامِ الرسولِ ﷺ. وأبياتُه تزيد على الألْفِ، وكان الدارسُ له يحفظ أبياتِه وشواهدَه ويدرس قواعدَه، فيكتسِب مَلَكةَ اللغةِ بما يحفظ من المنظومِ والمنثورِ، ويعلَم قوانينَها بما فيه من القواعدِ، ولم يكنِ النحويُّ هو مَن عرَف القواعدَ فحسب، بل كان النحويُّ هو مَن عرَف القواعدَ، وحفِظ أشعارَ العربِ، وعلِم تخريجَها، وحفِظ أيامَهم وخُطبهم وحِكَمَهم ومساجلاتِهم؛ ولذلك كان اسمُ «النحويِّ» مرادفًا لاسم «الأديب»، وألَّف العلماء كتبًا في تراجمِ النحويين سميت باسم «طبقاتِ الأدباء»، كما فعل

ابن الأنباريِّ في كتابه «نزهة الألِبَّاء في طبقات الأدباء»[١] - وإذا قرأنا ترجمةً من تراجمِ أساتذةِ النحوِ في عصورِه الأولى كالمبرِّد والكِسائيِّ والفَرَّاء وابن جنِّي، بهرنا ما نرى من حفظِهم وإتقانهم واطِّلاعِهم على شعرِ العربِ والمحْدَثين واستيعابهم لغةَ العربِ، والملَكةِ التي جاءتهم من مُزاوَلةِ هذه اللغةِ؛ فما من غريب إلا وهم به محيطون، وما مِن شاهدٍ أو مَثلٍ إلا وهم به عالمون، وما من أسلوبٍ إلا وهم عارفون بمعناه قادرون على تخريجِه.

ولم يكنِ الأمرُ كذلك في النحو فقط بل كان أيضًا في البلاغةِ، فأولُ كتابٍ أُلِّف في البيانِ العربيِّ وصل إلينا هو «البيان والتبيين» لأبي عمرو عثمانَ بن بحرٍ الجاحظ (المتوفى سنة ٢٥٥ هـ)، وهو كتاب حوَى من الأشعارِ والخطَبِ والأحاديثِ والأمثالِ والمساجَلاتِ ما هو كفيلٌ بتربيةِ مَلَكةِ البيانِ، والكتبُ التي وضِعت بعده كـ: «البديع» لابن المعتزِّ[٢]، و«نَقْد الشِّعْر» لأبي الفرجِ قدامةَ بن جعفر[٣]، و«الصناعتين»[٤] لأبي هلالٍ العسكريِّ، كلُّها كتبٌ مُلِئت بالشَّواهدِ والأمثلةِ، ومتنوِّع الأساليب، وقد عُنوا بذلك ولزِموه وحافَظوا عليه؛ ثقةً منهم بأن كسْبَ مَلَكةِ البيانِ إنما تكون بحفظِ الأساليبِ التي استكمَلت شروطَ البلاغةِ، وابن الأثير في كتابه «المثلَ السائرِ في أدبِ الكاتبِ والشاعرِ»[٥] حذَّر دارسَ كتابِه أن

(١) طبع غير مرة، وأفضل طبعاته: طبعة دار الأندلس ١٣٩٠هـ، بتحقيق إبراهيم السامرائي.

(٢) طبع حديثًا بمؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤٣٣هـ، بتحقيق عرفان مطرجي.

(٣) طبع بمكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٣٩٩هـ، بتحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي.

(٤) طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٧١هـ، بتحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

(٥) طبع غير مرة، وأفضل طبعاته طبعة نهضة مصر، بتحقيق د. أحمد الحوفي ود. بدوي طَبَانَة.

يقتصِرَ على القواعدِ التي في الكتابِ[1]، وأوجَب عليه أن يكتسِبَ الذوقَ الأدبيَّ بالاطلاعِ على بيانِ العربِ من منظومٍ ومنثورٍ، والإكثارِ من حفظِه وممارسةِ أساليبِه؛ قال في مقدمة كتابه: «ومع هذا فإنِّي أتيتُ بظاهرِ هذا العلمِ دون خافِيه، وحُمْتُ حول حِماه ولم أقَعْ فيه؛ إذِ الغرضُ إنما هو الحصولُ على تعليمِ الكلمِ التي بها تنظَم العقودُ وترصَّع، وتخلَب العقولُ فتخدَع، وذلك شيءٌ تُحيل عليه الخواطرُ، لا تنطِق به الدفاترُ.

واعلم أيُّها الناظرُ في كتابي أن مدارَ علمِ البيانِ على حكْمِ الذوقِ السليمِ، الذي هو أنفعُ من ذوقِ التعليمِ، وهذا الكتابُ وإن كان فيما يلقيه إليك أستاذًا، وإذا سألت عما ينتفع به في فنِّه قيل لك هذا، فإن الدُّرْبَةَ والإدمانَ أجْدَى عليك نفعًا وأهدى بصرًا وسمعًا، وهما يريانك الخبرَ عيانًا، ويجعلان عُسْرَك من القولِ إمكانًا، وكلَّ جارحةٍ منك قلبًا ولسانًا، فخذْ من هذا الكتابِ ما أعطاك، واستنبِطْ بإدمانِك ما أخطاك، وما مِثْلي فيما مهَّدْته لك من هذه الطريقة إلا كمن طبَع سيفًا ووضَعه في يمينِك لتقاتلَ به وليس عليه أن يخلقَ لك قلبًا؛ فإنَّ حمْلَ النِّصالِ غيرُ مباشَرةِ القتالِ [البسيط]:

وإنما يبلغُ الإنسانُ غايتَه ... ما كلُّ ماشيةٍ بالرَّحْلِ شِمْلالُ[2]

وكان كلَّما أفرَط القومُ في درسِ القواعدِ والتعمُّقِ فيها ظهَرت آراء تدعو إلى القصدِ في دَرْسِها والاقتصارِ منها على ما أقام الألْسنَ. قال

---

(١) ليس في المطبوعة، والمثبت من أصل المقال.

(٢) انظر: المثل السائر ١/ ٣٥، والبيت للمتنبي في ديوانه ١/ ٥٠٥، وروايته فيه:

وإنما يبلغ الإنسان طاقته

ابن السِّكِّيت[١]: خُذ مِنَ الأدبِ ما يَعْلَق بالقلوبِ، وتشتهيه الآذانُ، وخذْ مِنَ النحو ما تُقيم به الكلامَ، ودَعِ الغوامضَ، وخذْ من الشعرِ ما يشتمل على لطيفِ المعاني، واستكثِر من أخبارِ الناسِ وأقاويلِهم وأحاديثِهم ولا تُولَعنَّ بالغثِّ منها»[٢].

وقال الجاحظُ في رسائلِه: «فصلٌ في رياضةِ الصبيِّ: وأما النحو فلا تشغَل قلبَه منه إلا بقدرِ ما يؤديه إلى السلامةِ من فاحشِ اللحنِ، ومن مقدارِ جهلِ العوامِّ في كتابٍ إن كتبَه، وشعرٍ إن أنشَده، وشيءٍ إن وصَفه، وما زاد على ذلك فهو مَشْغَلَةٌ عما هو أولَى به، ومذهِلٌ عما هو أردُّ عليه منه، من رواية المثَلِ الشاهدِ، والخبرِ الصادقِ، والتعبيرِ البارعِ. وإنما يرغب في بلوغِ غايتِه، ومجاوزةِ الاقتصادِ فيه، مَن لا يحتاج إلى تَعرُّفِ جَسيماتِ الأمور، والاستنباطِ لغوامضِ التدبيرِ لمصالحِ العبادِ والبلادِ، والعلمِ بالقُطْبِ الذي تدور عليه الرحَى، ومَن ليس له حظٌّ غيرُه، ولا معاشٌ سواه. وعويصُ النحو لا يُجْدي في المعاملاتِ، ولا يُضطَرُّ إليه في شيء»[٣].

وقد وجِد شعورٌ منذ زمنٍ طويلٍ بتفضيلِ تعلُّمِ اللغةِ بالملَكةِ على تعلُّمِها بالقواعدِ، عِيبَ على عمارٍ الكلبيِّ بيتٌ من شعرِه فامتعَض وأنشَد أبياتًا منها [البسيط]:

(١) أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، الإمام اللغوي الأديب (ت ٢٤٤هـ)، له مؤلفات عدة، منها: إصلاح المنطق، الألفاظ، القلب والإبدال، والأضداد وغيرها. انظر ترجمته في: نزهة الألباء في طبقات الأدباء ١٣٨، إنباه الرواة ٤/ ٥٦.

(٢) انظر: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ١/ ٢٢.

(٣) انظر: رسائل الجاحظ ٣/ ٣٨.

كم بين قومٍ قد احتالوا لمنطقِهم ... وبين قومٍ على إعرابِهم طُبِعوا[١]

فهذا الشاعر قد فاضَل بين الطريقتينِ، وفضَّل الطريقةَ العمليةَ على الطريقةِ العلميةِ التقريريةِ.

وكان الناسُ يأخذون ألْسنتَهم بالإعرابِ ويلتزمون العربيةَ في كلامِهم. وكانوا يعيبون مَن يَلْحَن ويحفَظونه عليه ويتحدَّثون به. وما زال الأمر كذلك في النحو والبلاغةِ حتى نبتَت في العصورِ المظلمةِ تلك الحماقةُ التي تقدِّس القواعدَ وتجعلها كلَّ شيء في تعليمِ اللغةِ وتربيةِ ملَكتِها؛ وأعطتها قوةَ العصا السحريةِ، فما هو إلا أن يضرِبَ المرء بها حتى يستحوذَ على لغةِ العربِ فيكتُب بها ويخطُب ويساجِل وينظِم الشعرَ، فأكثَروا من القواعدِ وأقلُّوا من عَرْضِ المثَلِ والشواهدِ والأساليبِ، ووَرِثْنا نحن عنهم هذه الطريقةَ وسِرْنا عليها حتى الآن، ورجالُ التربيةِ في القديمِ والحديثِ والشرقِ والغربِ طالما دعَوا إلى تعليمِ اللغاتِ بالحفظِ والتكرارِ والمرانةِ والدُّرْبةِ، وبيَّنوا أن القواعدَ والقوانينَ لا تعلِّم اللغةَ ولا تكوِّن مَلَكتَها، وطالما ندَّدوا بهذه الطريقةِ التقليديةِ، وبهذا الأسلوبِ العقيمِ في تعليمِ اللغةِ؛ فابنُ خلدون الفيلسوفُ الاجتماعيُّ (ت ٨٠٨هـ)، بيَّن في مقدمتِه أن اللغةَ ملَكةٌ، وأن الملَكاتِ لا تكتسَب بالقواعدِ؛ وإنما تكتسَب بالحفظِ والتكرارِ. قال في فصلٍ عنوانُه «أن اللغةَ ملَكةٌ صناعيةٌ»[٢]: «اعلم أن اللغاتِ كلَّها مَلَكاتٌ شبيهةٌ بالصناعةِ؛ إذ هي مَلَكاتٌ في اللسانِ للعبارةِ عن المعاني ... والملَكاتُ لا تحصَّل إلا بتكرارِ الأفعالِ؛ لأن الفعلَ يقع

---

(١) انظر: الخصائص ١/ ٢٤١، معجم الأدباء ٤/ ١٥٩٥.

(٢) هو الفصل السادس والأربعون.

أولًا وتعود منه للذاتِ صفةٌ، ثم تتكرَّر فتكون حالًا، ومعنى الحالِ أنها صفةٌ غيرُ راسخةٍ، ثم يزيد التكرارُ فتكون ملَكةً، أي صفةً راسخةً»[١]، ثم بيَّن أن مَلَكةَ هذا اللسانِ غيرُ صناعةِ العربيةِ ومستغنيةٌ عنها في التعليمِ[٢].

وكان حريًّا بأهلِ القرنِ الثامنِ وما تلاه من قرونٍ أن ينتفِعوا بآرائه وبما بسَطه هذا العالم المجدِّدُ[٣] ودعا إليه من آراء في التربيةِ، ولكن ابن خلدون رجلٌ سبَق عصرَه فلم تَنتفِعْ به أممُ الشرقِ، ومن المؤلمِ أننا في عصرِنا الحديثِ

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون ٧٦٤، ٧٦٥.

(٢) كلام ابن خلدون لا يعني به لغة بعينها، بل أية لغة إنسانية، فاللغة عنده ليست ملكة صناعية كل الصناعة، ولكنها شبيهة بها وتحتاج إلى العلم والتعليم، وتشبهها في التلاقي معها في الممارسات الفعلية عملًا وفكرًا وعلمًا، وفي كونها تؤدي تحقيقًا من خلال اعتمادها على مجهودات جسمانية (فيزيولوجية). وتختلف معها في كونها ليست محسَّة كلَّ الإحساس مثلَها، ولكنها كفاءة ذات صفة راسخة بالفطرة والتعلم، ولهذا يشير إلى أن الصناعة مَلَكة في أمر أو عمل فكري... والملكة اللغوية عند ابن خلدون مبحث واسع تناوله بشيءٍ من الدراسة العلمية والموضوعية للغة، وآراء ابن خلدون تقترب مما ذهبت إليه الدراسات اللسانية الغربية التي اهتمت بـ«الملكة اللغوية» و«الاكتساب اللغوي». انظر: ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث د. عبد الجليل مرتاض، مجلة اللغة العربية، جامعة تلمسان، الجزائر، العدد الثامن، ٩٢، ٩٩، ١٠٣-١٠٦، الملكة اللغوية عند المتعلم في الدرس الخلدوني، بن يحيى زكية، رسالة ماستر بكلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، ٢٠١٧م، ص ١٥-١٧، ٥٢، ٥٣، الملكة اللغوية عند ابن خلدون، دراسة لسانية مقارنة: فايز عيسى المحاسنة، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، يوليو ٢٠٠٧م، ١٣٣- ١٥١.

(٣) عدَّ الأستاذ الشيخ محمد عرفة ابن خلدون مجددًا بالنظر إلى وضعه أصول علم الاجتماع، والتزامه المنهج العلمي والروح التجريبي، وحمله على التقليد، ونقده التعليم وطرقه في عصره، ودعوته إلى التماس المصادر الأصيلة والطرق الصالحة فيه. انظر: مصححو المفاهيم لأنور الجندي: ص١٠، ١١.

لم نفك قيودَ التقليدِ، وننفُض عنا غبارَ الكسلِ، ونحرِّر أنفسَنا من هذه الطريقةِ التي تُلاحِقنا نتائجُها إخفاقًا بعد إخفاقٍ، وخيبةً إثْرَ خيبةٍ.

هذا حديثُ الشرقِ، وحديثُ الغربِ أعجبُ، فما من كاتبٍ كتبَ في التربيةِ إلا وأنحَى على طريقةِ القواعدِ، ورأى أن اللغةَ لا تعلَّم إلا بالحفظِ والمحادَثةِ؛ فرُوسُّو[1] رجلُ الفكرِ الفرنسيّ في القرنِ الثامنَ عشرَ نبَّه في صراحةٍ على أن اللغاتِ يجب أن تعلَّم بواسطةِ المحادَثاتِ لا بواسطةِ الصرفِ والنحوِ. والدكتور غُوسْتاف لُوبون[2] المفكِّر الفرنسيُّ ذكَر في كتابه «روح التربيةِ» أن الأممَ الراقيةَ لا تأخذ التلاميذَ في تعليمِ اللُّغاتِ بكتبِ النحو، وإنما تأخذهم بالكلامِ المألوفِ. ثم قال: وهذه الطريقةُ لا تحرِم التلاميذَ درْسَ النحو، فهو يدرُس النحوَ أحسنَ درسٍ بهذه الطريقةِ اللاشعوريةِ التي تحوِّل النحوَ إلى ملَكةٍ راسخةٍ لا إلى تكلُّفٍ وتَعمُّلٍ[3].

ودعا سبِنْسَر[4] الفيلسوف الإنجليزيُّ في كتاب «التربية»، إلى تعليم

---

(١) جان جاك روسُّو jean Jacques Rousseau (١٧١٢- ١٧٧٨م): أديب كاتب فيلسوف فرنسي. نادى بالعودة إلى الطبيعة، وتقوم فلسفته على فكرة أن اللّٰه هو قوة للخير، وعلى مساواة الإنسان. ويعد كتابه «العقد الاجتماعي» الأساس في الفكر السياسي والاجتماعي الحديث. انظر: أعلام الفلاسفة ٢٥١- ٢٥٨.

(٢) غوستاف لوبون Gustove Le Bon (١٨٤١-١٩٣١م): عالم نفس واجتماع وطبيب فرنسي، عني بدراسة الحضارة الشرقية، ومن أبرز مؤلفاته فيها (حضارة العرب). له العديد من المؤلفات، منها فلسفة التاريخ، السنن النفسية لتطور الأمم. انظر: غوستاف لوبون لشوقي أبو خليل ١٢- ١٤.

(٣) أي: تكلُّف ومحاولة.

(٤) هربِرْت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣م): فيلسوف إنجليزي اشتُهر بنظريته =

اللغاتِ بأسلوبٍ أشبهَ بسننِ الطبيعةِ التي يتعلَّم بها الطفل لغته الأصليةَ بلا معينٍ ولا مرشدٍ، فيضمحِلُّ التعليمُ بواسطةِ القواعدِ ويعتاض عن ذلك بطرقٍ ناجعةٍ، وذلك ما أفضَى إلى تأجيلِ تعليمِ علومِ النحو والصرفِ والبلاغةِ للطلابِ. واستأنسَ في ذلك برأي المسيو مارسيلَ[(١)]، الذي ذهَب فيه إلى أن علومَ النحو والصرفِ والبلاغةِ ليست مما يبتدأ به في تعليمِ الأطفالِ، ولكنها متمِّماتٌ ومكْمِلاتٌ. ثم قال سبنسر: وقصارَى القولِ أنه لما كانت علوم النحو والصرفِ والبلاغةِ إنما نشأت بعد تَكوُّن اللغةِ، كان من الواجب أن يتلقاها التلميذ بعد تكوُّن اللغةِ، وسوى هؤلاء كثيرٌ من رجالِ التربيةِ في العصرِ الحديثِ.

إن أساليبَ التعليمِ والتربية التي تسير عليها أمَّةٌ من الأممِ هي خيرُ مقياسٍ لعقليتِها وثقافتِها ومقدارِ نضوجِها، فإن كانت تَجري على قوانينِ العقلِ والوجودِ وتُساير الرقيَّ الإنسانيَّ العامَّ، وتلائم روحَ طبائعِ الأشياء، استدللت بذلك على ثقافتِها ورقيِّها؛ وإن كانت تخالف ذلك أمكَنك أن تحكُمَ على الأمَّةِ بالتأخرِ في مضمارِ الحياةِ. وبالضعفِ في شتى مناحِيها

= عن التطور وفلسفة العدالة المبنية على التطور، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث بعد أوجست كونت. انظر: أعلام الفلاسفة، لهنري توماس، ترجمة متري أمين، مراجعة وتقديم د. زكي نجيب محمود ٣٠٢-٣١٤.

(١) جان جوزيف مارسيل Jan Joseph Marcel (١٧٧٦- ١٨٥٤م): مستشرق فرنسي أخذ العربية عن دي ساسي، وله كتاب «ألف ياء» بالعربية والتركية والفارسية، وكتاب «تاريخ مصر من الفتح العربي إلى الحملة الفرنسية»، ومنتخبات من الشعر العربي. انظر: الأعلام ٢/١٠٧.

العقليةِ والاجتماعيةِ والسياسيةِ، وإن الأممَ الرابضةَ حولنا، والمتطلِّعة إلينا، والتي تخالِطنا وتجاورنا لتحكمَ علينا بما نصطَنِعه من أساليبَ في التربيةِ والتعليمِ؛ فلنأخذ بالأسلوبِ المطابقِ لطبائعِ الأشياء وقوانينِ الوجودِ في تعليمِ اللغةِ العربيةِ، إن لم يكن لإتقانِ اللغةِ والتوفيقِ في تعليمها، فلاتِّقاء حكمِ الأممِ علينا بالتأخرِ في مضمارِ الحياةِ.



الآمالُ التي ندرِكها من هذا الأسلوبِ

كيف يتغيَّر نظرنا إذا آمنَّا بهذا الأسلوبِ - موازَنةٌ بين آراء أصحابِ الأسلوبين - أنه يرجَى مع مرور الزمنِ أن تصيرَ اللُّغةُ العربيةُ لغةَ رجلِ الشارعِ - وهذا يؤدي إلى جعْلِ العلومِ مشاعَةً في الأمَّة لا طائفيَّة - توفيرُ جهدِنا إلى فهْم علومِ الحياة - هذا الإصلاحُ اللغويُّ -إذًا- إصلاحٌ اجتماعيٌّ - الأممُ الراقيةُ تسير من سيئ إلى حسنٍ ومن حسن إلى أحسنَ- الأمم الوانِية[1] لا تغيّر - مثلٌ لما تغيَّر في الغربِ - تقليدُنا الغربَ في الأساليبِ الماديةِ - نحن أحوجُ إلى التغييرِ في أساليبِ التربيةِ والعلمِ - حثٌّ على السَّيرِ والتقدُّمِ.

لو اقتَنع الناسُ بما ذهبنا إليه في تعليمِ اللغةِ العربيةِ لتغيَّرت جهاتُ نظرِهم في التعليمِ، وأصبحت لهم آراء غيرُ آرائهم، ونظراتٌ غيرُ نظراتهم، فإذا فاضَلوا مثلًا بين أثرِ الصحفِ وأثرِ المدارسِ في تعليمِ العربيةِ، فضَّلوا أثرَ الصحفِ على أثرِ المدارسِ؛ ذلك لأن الصحفَ بذُيوعِها وانتشارِها وقراءة الكثيرِ لها، تعمَل على تربيةِ مَلَكةِ العربيةِ بالقراءةِ والدُّربةِ، وهي ليست تعمل على ذلك في عددٍ محدودٍ كطلابِ المدارسِ، بل في جميعِ القارئينَ في الأمةِ، وهي ليست تعمل على ذلك في زمنٍ محدودٍ، بل فيما شاء اللّٰه من ليلٍ أو نهارٍ، فهي أجْدَى أثرًا وأعمُّ نفعًا، وإذا كان كثيرٌ من القارئينَ يفهم الحديثَ بالعربيةِ، فذلك بفضلِ الصحفِ اليوميةِ والمجلاتِ

(١) أي: الضعيفة.

الأسبوعيةِ؛ لأنه يقرؤُها ويستقي منها الأخبارَ، ويعلم منها أخبارَ دولتِه وأخبارَ الدول الأخرى، وفي أثناء ذلك يتعلَّم العربيةَ ويعتاد فهمَها والحديثَ بها. أما المدارسُ فأثرُها في ذلك قليلٌ، يقدَّر بقدْرِ ما فيها من مطالَعةٍ ومحفوظاتٍ، وبقدْرِ ما فيها من متعلِّمينَ.

أما الذين لا يؤمنون إلا بالقواعدِ فلا يرون للصحفِ والمجلاتِ فضلًا في تعليمِ العربيةِ؛ لأنها ليست تعطيهم قواعدَ ولا تعلِّمهم قوانينَ، وإنما الفضلُ كلُّ الفضلِ للمدارسِ التي تعلِّمهم إياها؛ لأنهم لا يؤمنون إلا بها.

وإذا رأوا اثنينِ أحدَهما يتكلَّم العربيةَ صحيحًا ويقرؤُها صحيحًا ويكتُب بها صحيحًا وهو يجهل القواعدَ، أو يعلَم القواعدَ ويتقنها ولكنه لا يحسِن الكلامَ بها ولا الكتابةَ، حكَموا بأن الأولَ أعظمُ إتقانًا للعربيةِ وامتلاكًا لها من الثاني، كما يحكم لمن يعمل أعمالَ السباحةِ بأنه سابحٌ ماهرٌ دون مَن يصِفها ويبين قوانينَها ولا يعرِف عملَها.

ولو قدَّر اللَّه لمصرَ وللأقطارِ العربيةِ الشقيقةِ أن تأخذَ بهذا الإصلاحِ وأن تسيرَ في تعليمِ العربيةِ على هذا الأسلوبِ، لأفادت من وراء ذلك أعظمَ فائدةٍ، ولاستطاعت أن تصلَ إلى النتائجِ الآتيةِ:

١- أن تدرِك البلادُ ما تنشُده من تعلمِ العربيةِ تعلمًا يجعلها ملَكةً مذلَّلةَ القيادِ لخدمتِها، فيستطيع كلُّ شابٍّ أن يتكلَّم ويخطُبَ ويحاضرَ ويكتب بها دون ضعفٍ ولا الْتواء بأيسرَ ما يكون من الزمنِ وبأقلِّ ما يكون من المشقَّةِ.

٢- أنه يرجَى مع مرورِ الزمنِ أن تصيرَ العربيةُ ملَكةً لجزءٍ عظيمٍ من الأمةِ

يتكلَّمون بها ويتفاهمون، فتصبِح لغةَ البلادِ وتغزو العامية وتحتلُّ مكانَها، وهذا غُنْمٌ عظيمٌ يؤدي إلى أعظمِ النتائجِ.

٣- ومن أهمِّ نتائجه أن تصبحَ لغةُ الكتابةِ لغةَ التَّحادُثِ في الشَّعْبِ فيسهُل عليه فهمُ ما يقرأ، فكما لا يجد المرء في فهمِ الخطابِ عُسرًا ولا مشقَّةً، لا يجد كذلك في فهمِ الكتابِ عسرًا ولا عَناءً، فيسهُل العلمُ على راغبيه ويُيسَّر للأمَّة على السواء، ويتبدَّل الحالُ غيرَ الحالِ، فلا نظلُّ على حالتِنا الراهنةِ التي تخالِف فيها لغةُ الكتابةِ لغةَ التخاطبِ، مما أدَّى إلى ألَّا يفهمَ جمهورُ الأمَّةِ لغةَ الكتابةِ؛ لأنها غيرُ لغتِه التي يتكلَّم بها، وأنَّى له أن يحصلَ العلمُ ما دام مكتوبًا بلغةٍ لا يفهَمها، فيكون العلمُ طائفيًّا خاصًّا بطائفةٍ مخصوصةٍ لا يَشيع ولا يَذيع بين جميعِ طبقاتِ الأمَّةِ.

٤- وكذلك من أهمِّ نتائجه أن تسايرَ حياتُنا طبيعةَ الأشياء، وتكونَ أقربَ إلى الطبيعةِ فنتعلَّم اللغةَ بأقلِّ وقتٍ وأيسرِ جهدٍ، ونفرُغ إلى علومِ الكونِ، والوقتُ والجهدُ اللذان ننفِقهما في تعلُّم كيف نتكلَّم، ننفِقهما في تعلُّم علومِ الحياةِ؛ حتى لا يسبِقَنا غيرُنا إلى معرفةِ هذا الكونِ الذي نعيش فيه ومعرفةِ أسرارِه، وحتى لا نتأخرَ عن قافلةِ الحياةِ البشريةِ السائرةِ في طريقِ المجدِ والقوةِ.

نحن الآن ننفِق نصفَ عمرِنا لنتعلَّمَ كيف نتكلَّم، ثم ننفِق ما بقي في تعلُّمِ علومِ الحياةِ، فلا بدَّ أن يسبِقَنا هؤلاء الذين أنفَقوا أعمارَهم في علمِ علومِ الحياةِ وفي العملِ لها، ولا بدَّ أن نقصِّرَ[1] في مجاراةِ هذه الأممِ في ميدانِ

(١) يعني بسبب ما نضيعه من أعمارنا.

العلمِ والثقافةِ، وفي نواحي النشاطِ الحيويِّ الأخرى.

هذه أهمُّ النتائجِ التي تَترتَّب على هذا الإصلاحِ وذلك التجديدِ في أسلوبِ دراسةِ اللغةِ العربيةِ.

أرأيتم كيف أن الإصلاحَ الذي ندعو إليه عظيمُ الخطرِ، محمودُ العاقبةِ، جليلُ الغايةِ، وله ما بعده من نتائجَ نافعةٍ مثمرةٍ.

إنه من جهةٍ يقرِّب هذا البعيدَ الذي جَرَيْنا إليه ولم ندرِكْه، وجرَت الأجيالُ قبلَنا إليه ولم تدركه، وهو من جهةٍ أخرى يوفِّر في جهودِنا وفي أعمارِنا، ويَدَّخِرها لنشاطِنا الحيويِّ في سبلِ الحياةِ، وفي فهمِ علومِ الكونِ وأسرارِه؛ وهذا كسبٌ ليس بالقليلِ؛ فإنني أعتقد أنه لا فرْقَ بين الشرقِ والغربِ، إلا أن الشرقَ بذَل جهودَه جُلَّها في معرفةِ اللغةِ ومعرفةِ أسرارِها، والغربَ بذَل جهدَه جُلَّه في فهمِ أسرارِ الكونِ وسننِه وقوانينِه.

وهو من جهةٍ ثالثةٍ يبيح ذخائرَ اللغةِ العربيةِ وأخلاقَها لطبقاتِ الأمَّةِ المتعلِّمةِ، ويعطيهم المفتاحَ الذي يفتحون به كنوزَها الثمينةَ؛ ذاك لأن اللغةَ العربيةَ دوِّنت بها علومٌ وآدابٌ ودينٌ وأخلاقٌ وفنونٌ، وما لدينا من ذلك هو محصولُ ثلاثةَ عشرَ قرنًا، وليس ذلك منتوجَ العربِ وَحْدَهم، بل هو منتوجُ العربِ والأمَّةِ اليونانيةِ في أزهَى عصورِها والأمةِ الفارسيةِ والأمةِ الهنديةِ؛ فقد تُرجمت إلى اللغةِ العربيةِ علومُ اليونانِ وآدابُهم وأخلاقُهم، وعلومُ الفرسِ والهندِ وآدابُهم وحكمتُهم في العصرِ العباسيِّ، وضمَّ ذلك إلى ذخائرِ اللغةِ العربيةِ، وصار مسهلًا لمن يعرفونها أن يَطَّلِعوا على علومِ العربِ واليونانِ والفرسِ وآدابهم وأخلاقِهم.

وقد كانت طبقاتُ الأمَّة كلِّها محرومةً من هذه الكنوزِ إلا فئةً قليلةً ممن توفَّروا على دراسةِ العربيةِ واكتسابِ مَلَكةِ الفهمِ بها، وكان يصحُّ أن يقال- بالنظرِ إلى الكثرةِ المطلَقةِ في الأمَّة: إنها أمَّة تعيش بدون علومٍ وبدون مُثُلٍ عليا، وبدون فنونٍ وآدابٍ، إذ هم ليسوا يفهمون إلا العاميَّةَ، والعاميَّةُ لم يكتَب بها علمٌ ولا فنٌّ ولا أدبٌ، ولم يكتَب بها إلا بعضُ قِصصٍ لا توجِّه أمَّةً إلى مُثلٍ عليا، ولا تغني في الحياة فتيلًا، فإذا أخِذ بهذا المنهاجِ الجديدِ، وتَربَّت مَلَكةُ العربيةِ في نفوسِ الطبقةِ المتعلِّمةِ، وانتقَلت مَلَكتُها إلى مُعاشريهم وخُلطائهم بالمحادَثةِ والمخالَطةِ، فقد وضَعْنا كنوزَ العربيةِ بأيدي الأمَّةِ المصريةِ، تأخذ منها حين تشاء وحيث تريد، ونَقَلْناها من أمَّةٍ لا علومَ لها ولا حضارةَ، إلى أمَّةٍ ذاتِ علومٍ وأخلاقٍ وفنٍّ وآدابٍ وحضارةٍ.

لقد وقَفْنا وطال بنا الوقوفُ، وسكنَّا وطال بنا السُّكون، والعالَم في سيْرٍ وتقدُّمٍ وحركةٍ، والوقتُ لا يسمَح بعدُ بالانتظارِ.

إن في الأممِ المتقدِّمةِ ظاهرةً، وهي أنهم دائمًا يُعمِلون عقولَهم فيما ورِثوه وفيما هم عليه، فيصلِحون منه، ويغيِّرون فيه، فإذا الفاسدُ صالحٌ، والضعيفُ قويٌّ، والراكِدُ جارٍ، وإذا حركةُ التجديدِ والنشاطِ تشملهم جميعًا وتَعمُّهم.

وإن في الأممِ المتأخرةِ ظاهرةً تناقِضها، وهي أنهم لا يحاولون إصلاحًا ولا يحاولون تقدمًا، والميراثُ الذي ورِثوه من آبائهم لا يحسِّنون منه، ولا يجمِّلون فيه، ويتركونه لأبنائهم كما كان أو أسوأ مما كان![1]

---

(١) في كلام الأستاذ الشيخ كثير من الواقع، وقد كانت هذه دعوة لدى بعض الإصلاحيين أمثال الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣هـ)، والشيخ عبد المتعال الصعيدي (ت ١٣٨٦هـ)، وغيرهما.

انظروا إلى أممِ الغربِ فإن الإصلاحَ شمِل عندهم كلَّ شيء من شئونهم المادية والمعنوية؛ شمِل آلاتِ الحربِ والقتالِ، فبعد أن كانت السيفَ والرمحَ، أصبحت المدْفع والدبَّابةَ والطائرةَ والغوَّاصةَ والمدمِّرةَ، وشمِل أدواتِ السفرِ، فبعد أن كانتِ الخيولَ والجِمالَ والمراكبَ الشِّراعيَّةَ أصبحت القطاراتِ والبواخرَ، وشمِل البريدَ، فبعد أن كان يحمَل على البغالِ والجيادِ والحمامِ الزاجلِ، أصبح يطير بالبرقِ واللاسلكيِّ، وشمِل أدواتِ الإضاءةِ، فبعد أن كانتِ الشموعَ والقناديلَ، أصبحتِ المصابيحَ والثرياتِ الكهربائيةَ.

ومثلُ هذا التغييرِ والتجديدِ كان في العلمِ وأساليبِ التربيةِ والتعليم، وقد أخذنا عنهم الأساليبَ الماديةَ وجدَّدْنا فيها كما جدَّدوا، ولم نأخذْ عنهم الأساليبَ العلميةَ، ونجدِّد فيها كما جدَّدوا، ونصلِح فيها كما أصلَحوا، ويظهر أننا إلى التجديدِ في العلمِ وأساليبِ التعليمِ أحوجُ منا إلى التجديدِ في وسائلِ العَيْشِ الماديةِ[١].

علينا أن نقوِّيَ ملَكَةَ النقدِ فينا، وأن ننفضَ غبارَ الكسلِ عنا، وأن نفكِّرَ وننقُدَ ونبتكِرَ، وألَّا ننظرَ إلى الأشياء التي بين أيدينا على أنها قد بلَغت ذروةَ الكمالِ، بل ننظر إليها على أنها عملٌ إنسانيٌّ محتمِلٌ للنقصِ قابلٌ للكمالِ، وأن مهمَّة السَّلفِ فيما ورِثوه عن الخلَفِ أن يكمِلوا نقْصَه

(١) يعكس هذا الكلام الاتجاهَ الفكريَّ للشيخ محمد عرفة، فهو من أصحاب الاتجاه الذي يرى التمسك بالتراث - لكن مع عدم الانغلاق عليه - والأخذ من الحضارة الغربية، ولا سيما ما يتعلق بالجانب العلمي.

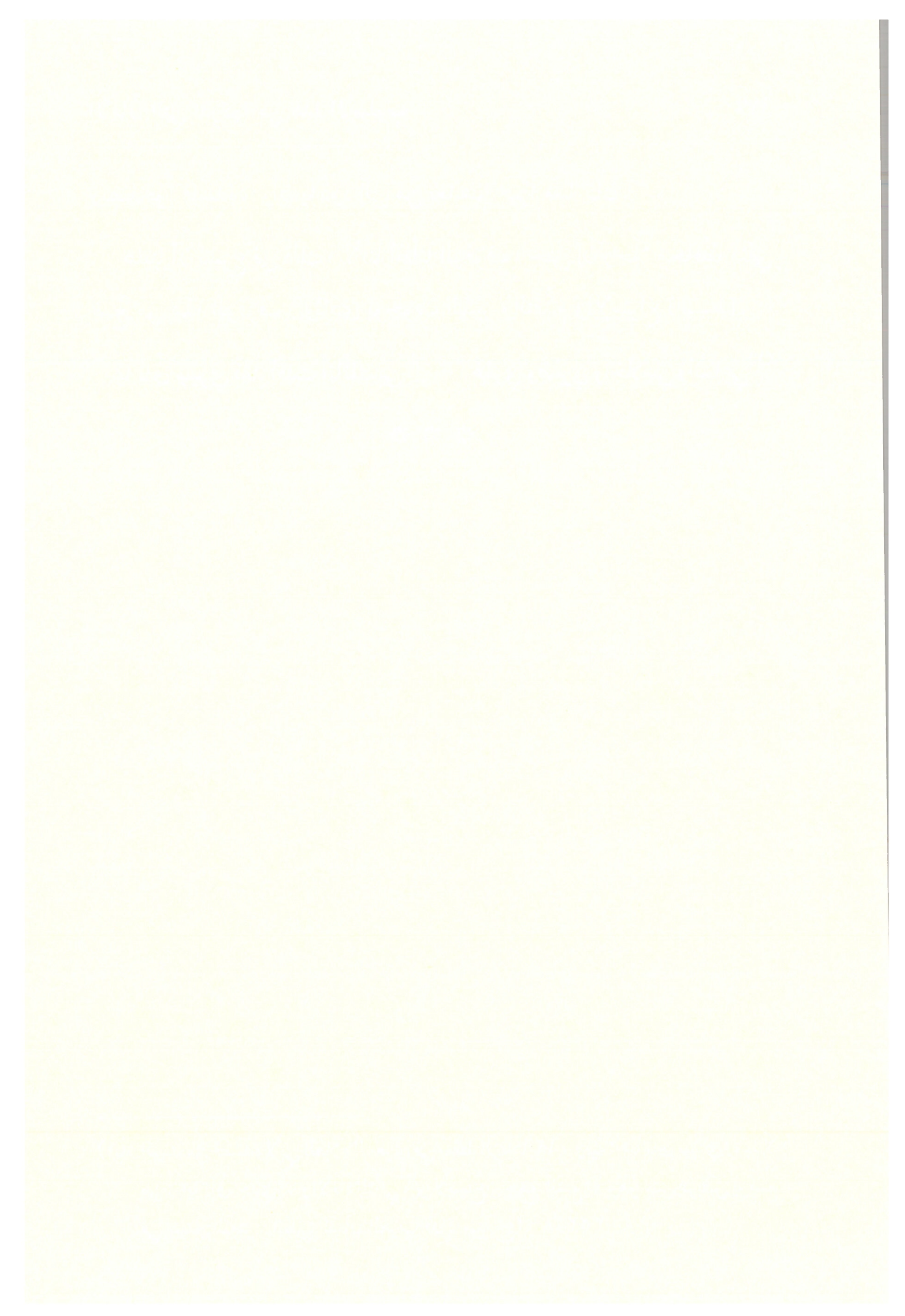
ويصلِحوا فاسدَه، وأن يؤدُّوه إلى مَن بعدَهم خيرًا مما كان.

علينا أن نسرعَ في ذلك؛ لأننا أطَلْنا الوقوفَ، حتى إن رجلًا محافظًا مثلي ضجَّ من هذا الوقوف، ونادَى بوجوبِ السَّيْرِ والتقدُّمِ والإسراع [البسيط]:

يا ناقُ سِيري فقد أفنت أناتُك بي ... عُمْري وصَبْري وأحلاسِي وأنساعِي(١)

***

(١) البيت من قصيدة لأبي العلاء المعري في سقط الزند ١٢٩، وفيه: «يا ناق سيري»، بدلًا من: «يا ناق جدي». والأناة التأني، والأنساع: جمع «نسع»، وهو سير عريض يوضع في صدر البعير. انظر: لسان العرب (ن. س. ع)، ٨/ ٣٥٢.



القواعد

لستُ أبغضُ القواعدَ ولا أُزْرِي عليها، بل أنا أُحِبُّها وأجِلُّها وأعلَم لها مكانتَها؛ أعلَم أنها حفِظتِ اللغةَ العربيةَ طوالَ هذه القرونِ، وأعلَم أنها حكمٌ فاصلٌ إذا خانت المرءَ مَلَكتُه اللغويةُ يستشيرها فتحكُم بالصوابِ، وهي حصنٌ حصينٌ لجأت إليه اللغةُ فحماها من التغيرِ والاندثارِ، ولولاها لَبادتْ كما بادتِ اللغاتُ الأخرى، والقواعدُ فوق ذلك تَهْدينا إلى وجوهِ الحكمةِ في هذه اللغةِ الشريفةِ، وتقوّي عقولَنا بما تهدي إليه من تعليلٍ[(١)].

هذا ما لا ننكِره على القواعدِ، إنَّما الذي ننكِره عليها أن يكونَ بها كسْبُ مَلَكةِ اللغةِ العربيةِ، وقد أبان الدليلُ أنها لا تكسَب إلا بالحفظِ والمرانةِ والتكرارِ.

وعليه فإنِّي أحضُّ على درْسِ القواعدِ للأغراضِ التي قدَّمتها وأتمنَّى أن يكونَ لها في نفوسِ أبنائنا التلاميذِ محبَّةٌ وإيثارٌ، وأن يكونَ لها لهذه المحبةِ وهذا الإيثارِ سبيلٌ إلى عقولهم، أتمنَّى أن تُحبَّبَ إليهم وتستهوي

---

(١) الأصول لا تُعلَّل، والأسماء لا تعلل، والمركَّبات لا تعلل، والوضعيات- وهي ما نطقت به العرب على نحو خاص- لا تعلل، بل اللغة كلها لا تعلل، ولا حاجة لتعليل اللغة إلا للتعليم. انظر: ارتشاف الضرب ٢/ ١٨٥، التذييل في شرح كتاب التسهيل ٢/ ١٣٣، ٢٣٠، ٤/ ٣٣٣، تأصيل البنى في تعليل البنا للزركشي ١٢، ٦٢، الاقتراح في أصول النحو ٢٦٠، الهمع ١/ ١٧٩، مناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان ١٨٢. وعن علل النحو راجع: الإيضاح في علل النحو لأبي القاسم الزجاجي (ت ٣٣٧هـ)، العلل في النحو لأبي الحسن الوراق (ت ٣٨١هـ).

أفئدتَهم، وتستأثرَ بعقولهم، فيجِدوا لدرْسِها لذَّةً ومتعةً، ويفقَهوا أسرارَها، ويدرِكوا أغوارَها، ويعلَموها علمًا قويًّا متينًا، ولكني أجد أبناءنا التلاميذَ يُبغضونها أشدَّ البغضِ، ويجدون في درْسِها ألمًا يَحُزُّ في نفوسِهم، ويضيقون بتحصيلِها وفهمِها ذرعًا، يتخرَّج التلاميذ وهم لا يحفظون منها إلا القليلَ، ولا يحسِنون من هذا القليلِ إلا الأقلَّ، ولقد هالَني هذا الانصرافُ عنِ القواعدِ، وهذا الجهلُ بها، فبحثتُ عن أسبابِه وعِلَلِه فوجدتها ترجِع إلى أسبابٍ ثلاثةٍ:

أولُها: أنها درِّست لتلاميذِ القسْمِ الابتدائيِّ وهم صغارٌ لا تناسِب عقولَهم؛ إذ إنها فلسفةٌ للغةِ وعقولُهم ناشئةٌ لا يناسِبها هذا التعمُّقُ ولا هذا الغَوْصُ، فدرَسوها دون أن يجدوا لها لذةً، فلم يفهموها ولم يدرِكوا سرَّها، ووجَدوا أنفسَهم مجْبَرينَ على قراءتها والإنصاتِ إلى دروسِها وحبْس أعضائهم عن النشاطِ والحركةِ للاستماعِ إلى ما لا يفهَمون فأبغَضوها ووجَدوا لدرْسِها ضِيقًا وحَرجًا، وعلِق بنفوسِهم كُرْهُها، فلمَّا كبِروا وتفتَّحت أذهانُهم، وكان فيها قدرةٌ على استكناهِها بقِي معهم هذا البغْضُ لدرْسِها، وكانت عقدةً نفسيةً، بغضٌ لما لا سببَ لبغضِه الآن؛ لأنه كان بغيضًا إليهم من قبلُ لعدمِ فهْمِه وتذوقِه وإكراهِهم عليه، والعقلُ إنما يفهم الشيء ويعلَمه بقدْر حبِّه إياه وإقبالِه عليه، فلم يفقهوها كبارًا كما لم يفقهوها صغارًا.

ويُضَمُّ إلى ذلك أن القواعدَ إنما رتِّبت في سِني الدراسةِ ترتيبًا تصاعديًّا، ورتِّبت كلُّ مرحلةٍ على التي قبلها، فإذا لم يفهمِ التلميذُ ما قبلها صعُب عليه إدراكُ ما بعدها. فإذا استعصَى عليهم أن يفهموا القواعدَ في سِنِّ الصِّغرِ لأنها

لا تناسِب عقولَهم، لم يفهموها في سنِّ الكِبَر لأنهم يَتلقَّون ما عِلْمُه متوقِّفٌ على علْمِ ما قبله، وهذا يفرِض علينا ألا نعلمَ القواعدَ في هذه المرحلةِ من السنِّ.

ثانيها: أن المؤلِّفينَ المتأخِّرينَ[١] مسَخوا القواعدَ وشوَّهوها فألقَوها إلى المتعلِّمينَ خاليةً من عِلَلها وأسبابها وحِكَمِها؛ ألقَوها جافَّة لا روحَ فيها ولا حياةَ، وعلَّموها التلاميذَ قواعدَ لا روابطَ بينَها، ولا يُدْرَى لماذا كان هذا الحكمُ، ولماذا اختِير هذا الوضعُ، فكرِهوا دروسَ القواعدِ لذلك.

وإن المؤلِّفينَ المتأخِّرينَ فعَلوا ذلك طلبًا للاختصار واستعجالًا للفائدة؛ لأنهم رأوا أن المطلوبَ هو القواعدُ ليُجْرَى عليها، وما عدا ذلك فضلٌ ومَشْغَلةٌ. وما دَروا أن هذا الفضلَ هو الذي يثبِّت القاعدةَ، وهو الذي يُسِيغها ويجعلُ الذهنَ قابلًا لها والنفسَ مشوقةً إليها.

وهذا يفرِض علينا أن نبدأ بالتأليفِ من جديدٍ، فنذكر عِلَلَ القواعدِ وأسبابَها، ونذكر الفروقَ بين الأحكامِ، ولماذا اختلفت أو تماثلت، ويجب أن نتحرَّى في التعليل؛ لئلا نقعَ فيما وقع فيه مَن سبقونا من الخيالِ والجرْي وراء الأوهامِ وذكْرِ عللٍ يعلَم العقلُ بطلانَها، وأنها لم تَدُرْ بخلَدِ واضعي اللغةِ أو المتكلِّمينَ بها.

---

(١) لعله يقصد الفترة من أواخر القرن التاسعَ عشرَ وأوائل القرن العشرين زمن الاحتلال الإنجليزي؛ لأنه من غير المعقول أن يقصد بالمؤلِّفين المتأخرين أصحاب الحواشي والتقريرات الذين زادوا في الشروط والتفصيلات، واستدركوا حتى على إمام النحاة سيبويه نفسه.

ثالثها : أن العصورَ الإسلاميةَ التي تَقدَّمتنا اختلَفت عليها حالتانِ من القوةِ والضعفِ والخصْبِ والجدْبِ، فكانتِ العصورُ الإسلاميةُ الأولى عصورَ قوَّةٍ وعزَّةٍ، أخصَبت فيها العقولُ، وطمَحت فيها النفوسُ، فأنتجَت خيرَ إنتاجٍ واستغلّت أعظمَ استغلالٍ، وكانت العصورُ المتأخرةُ عصورَ ضعفٍ واضمحلالٍ، أجدَبت فيها العقولُ ولم تعطَ ملكةَ الاستنباطِ، وورِثت عن سلفِها ميراثًا علميًّا عظيمًا فتصرَّفت فيه بالاختصارِ والفهمِ والتأويلِ، ودخلت هذه العلومُ في أذهانهم وخرَجت فيها بعضُ المسْخِ والتشويهِ، وبعضُ التبديلِ والتحريفِ.

ونحن اعتمَدْنا في ثقافتِنا على هذه الكتبِ المتأخرةِ، وعلى الكتبِ المستحدَثةِ التي أخذت منها، واعتمَد مؤلِّفوها عليها.

ومن الواجبِ أن يدرس المنقطعون لدراسةِ العربيةِ هذه القواعدَ دراسةً تاريخيةً فتُدْرَس القاعدةُ في عصورِها المختلفةِ، وتُساير في سِنِيها المتعاقبةِ، ويعلم ما وقع عليها من تحريفٍ وتغييرٍ، ثم تخلَّص القاعدةُ مما شوَّهها ومسَخها، وتَبرُز في أحسنِ صورِها وخيرِ مَعارضِها. ذ

يجب أن نعطيَ أنفسَنا حقَّ الإصلاحِ والتبديلِ، وحقَّ الابتكارِ والتجديدِ، فما حَسَنٌ أن نُبْقِي على قواعدَ مشوَّهةٍ وعلومٍ ممسوخةٍ مبدَّلة. ويجب أن نعطيَ أنفسَنا حقَّ الحكْمِ حتى على منتجاتِ العصورِ الزاهيةِ، فهذه سنَّةُ الوجودِ، يضَع الواضعُ، ويبتكِر المبتكِر وبحسَبه أن يكونَ قد هُدِي إلى القاعدةِ من العلمِ، ويأتي مَن بعدَه ليزيدَ فيما وضَع، ويُصْلِح ما ابتكَر، وبهذا تنمو العلومُ وتعظُم الفنونُ.

ولا يعيب المتقدِّمين ولا يغضُّ من شأنهم أنهم فاتهم شيءٌ وأدركه المتأخرُ، فالإنسانُ موكَلٌ به النسيانُ ولم يُخلَق معصومًا من الخطأ مبرءًا من الزَّلل، إنما العيبُ علينا إذا بقِينا نعتقِد فيهم العصمةَ وفي عقولِنا الضعفَ، فنعطيهم حقَّ التأليفِ والابتكارِ ولا نعطي أنفسَنا حقَّ النقدِ والتمحيصِ، ونرى أننا أقلُّ شأنًا منهم وأصغرُ من أن نجري لهم في مضمارٍ أو نزاحمَهم في سباقٍ، أراني قد قلتُ ما لم يؤلَّف، وذكرتُ ما لم يعتدَّ، فمِن علومٍ مسِخت، وقواعدَ حرِّفت، ذكرها المتقدمون صحيحةً وحرَّفها المتأخرون، ومن علومٍ وضَعها المتقدِّمون وبقِيت على ما هي عليه ولكنها لا تصبر على محك النقدِ، وإذا نقِدت ظهر زَيْفُها، ومن قواعدَ جرِّدت من عِلَلِها وأسبابها، فأصبَحت جافَّةً لا تُقبَل ولا تُساغ.

وأرى أنه لا يصحُّ أن يترك ذلك لا يُمثَّل له ولا يؤتَى بشاهدٍ عليه، فمِن الواجبِ أن يُذكَر لذلك بعضُ الأمثلةِ والشواهدِ، وإلا كان إسرافًا في القولِ ودعوى لا يقوم عليها شاهدٌ ولا دليلٌ.

وإلى القارئ بعضُ الأمثلة لعلَّها تصلُح شاهدًا لما قدَّمناه في كتابِ «النحو والنُّحاة بين الأزهر والجامعة»[1]، ما يغنينا عن ذكرِ أمثلةٍ من النحو، فلْنعمَدْ إلى ذكْرِ أمثلةٍ من علومِ العربيةِ الأخرى وهي علومُ البلاغةِ الثلاثةُ: المعاني والبيان والبديع.

أولًا: إنِّي لأعجَب لهؤلاء الكاتبينَ في البلاغةِ من المتأخرينَ يعمَدون إلى أسبابِ الحسْنِ في الكلامِ التي هدِي إليها المتقدِّمون فيعلِّلونها بغيرِ عِلَلِها

---

(١) انظر الكلام عليه صـ ٢٦ من كتابنا هذا.

النفسيةِ ويُسوُّون بينها وبين غيرِها حتى يصرِفوا الذوقَ عنِ الإحساسِ بها وعن تذوُّقها، كأنهم قد تَواصَوا فيما بينهم على أن يفسِدوا هذا العلمَ إفسادًا حتى لا يُبْقوا فيه شيئًا صحيحًا.

هدِي المتقدِّمون كعبدِ القاهر إلى أنه قد يوجَد شيءٌ في النَّظْم[1] فيكسِب الكلامَ حسنًا وجمالًا، كالحذفِ[2] فإنك تحسُّ من الكلامِ المحذوفِ منه بعضَ أجزائه في بعضِ الحالاتِ جمالًا لا يكون إذا أنت ذكرتَ المحذوفَ، ومثَّل لذلك بقولِه [البسيط]:

قالت سميَّةُ قد غَوِيتَ بأن رأتْ حقًّا تناوَب ما لَنا ووفودا

غَيٌّ لعَمْرُكَ لا أزال أعودُه ما دام مالٌ عندنا موجودًا[3]

---

(١) عرَّف عبد القاهر الجرجاني النظم بقوله: «... أن تضع كلامك الوضعَ الذي يقتضيه علم النحو، وتعملَ على قوانينه وأصوله...». فهو عنده توخي معاني النحو فيما بين الكلم. انظر: دلائل الإعجاز ٥٥، ٨١، ٣٦١، ٣٦٢. وانظر: حول نظرية النظم: نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني لمحمد عبد المنعم خفاجي، نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني، لنجاح بنت أحمد الظهار، نظرية النظم وقراءة الشعر عند عبد القاهر الجرجاني لمحمود توفيق سعد، من قضايا البلاغة والنقد عند عبد القاهر الجرجاني، لحسن بن إسماعيل الجناحي ٤١-٧٥.

(٢) الحذف البلاغي فنٌّ حصر بعض العلماء جميع البلاغة فيه، وهو فن الإيجاز، ولا تكاد تخلو منه سورة من سور القرآن ولا آية من آياته، عنه وعن الحذف البلاغي وشروطه وأغراضه وأنواعه ومنزلته البلاغية انظر: دلائل الإعجاز ١٤٦- ١٧٢، الحذف البلاغي في القرآن الكريم لمصطفى عبد السلام أبو شادي، أسلوب الحذف في اللغة العربية من الوجهة النحوية والبلاغية، لأيمن عبد الرزاق الشوا، رسالة دكتوراه، جامعة دمشق ٢٠٠٠م.

(٣) في المطبوعة ومطبوعة دلائل الإعجاز: «ووفودا، موجودا»، وفي هامش إحدى =

وقولِه [الطويل]:

تَثاءب حتى قلتُ: داسِعُ نفْسِه وأخرَج أنيابًا له كالمَعاولِ[(١)]

وقولِه [السريع]:

غَضْبَى ولا واللَّهِ يا أهلَها لا أطْعَمُ البارِدَ أو تَرضَى[(٢)]

وقولِه [مجزوء الكامل]:

وعلمتُ أنِّي يومَ ذاك مُنازِلٌ كَعْبًا ونَهْدَا

قومٌ إذا لبِسوا الحديـ ـدَ تَنمَّروا حَلَقًا وقِدًّا[(٣)]

وقال عبد القاهر: «هذا باب يشبه السحرَ؛ لأنك تراك أنطَقُ ما تكون إذا لم تنطِقْ، وأشدَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ»[(٤)].

= نسخ «الدلائل»: قال عبد القاهر: «ووفود» معطوفة على الضمير في: «تناوب»، والتقدير: بأن رأت حقًّا تناوب هو والوفود ما لَنا. والبيتان في دلائل الإعجاز ١٥٢ لمعاوية بن جعفر بن كلاب، والمفضليات ٣٥٦، الأصمعيات ٢١٢.

(١) البيت لعبد اللَّه بن الزبير في دلائل الإعجاز ١٥١، وهو في مجموع شعره ١١٥، والأغاني ١٤/ ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) البيت لبكر بن النطاح، انظره في دلائل الإعجاز ١٥٢، وهو في الحيوان ٥/ ١٤٨، الأغاني ١٩/ ١٢٥.

(٣) البيتان لعمرو بن معديكرب الزبيدي، انظرهما في دلائل الإعجاز ١٤٨، وهما في مجموع شعره ٨٠، وشرح الحماسة للتبريزي ٥٠. وكعب بنو الحارث بن كعب بن مَذْحِج، ونَهْد من قضاعة، وكان بين الشاعر وبينهم حرب، وقيل: النهد الفرس الغليظ. تنمَّروا: يعني لبِسوا الدروع المنسوجة وتشبهوا في أفعالهم بالنمر. والقِد: الجلد الذي تصنع منه الدروع، لسان العرب (ق. د. د)، ٣/ ٣٤٤، (ن. م. ر)، ٥/ ٢٣٥.

(٤) ترجمة الباب في دلائل الإعجاز ١٤٦: «القول في الحذف: هو باب دقيق المسلك =

إلا أن عبدَ القاهرِ بيّن أن في الحذفِ حسنًا ولم يبيِّن سببَ هذا الحسنِ وعلّتَه، واكتفى بأن يعرِض علينا الشيءَ الجميلَ ويضَع أيديَنا على موضعِ الجمالِ فيه وهو «الحذفُ»، وبيَّن أننا لو ذكرنا المحذوفَ لما كان للكلامِ ذلك الحسنُ، فأما العلةُ في ذلك فلم يذكرها ، ونحن إذا رجَعْنا إلى نفوسِنا نجد أن العلةَ في حسنِ الحذفِ في هذه المواضعِ أمورٌ نفسيةٌ، وهي أن المحذوفَ تدلُّ عليه قرائنُه، فإذا ذكِر كان ثقيلًا موضعُه؛ لأنه تعريفٌ لما عُرِّف وبيانٌ لما بُيِّن، وإذا حذِف رفِعت المؤْنةُ عنِ السامعِ بذكْرِه ورُفِعتِ الكُلْفةُ التي تكون[1] عليه عندما يسمع حديثًا معادًا أو كلمةً لم يجد فيها فائدةً جديدةً. وبالجملةِ فالكلمةُ الخاليةُ من الفائدةِ كالثقيلِ تُقْذَى العينُ بوجودِه، فإذا لم تبصِرْه في موضعٍ كان يُتوقَّع وجودُه فيه، وجدتَ لذلك من الأُنسِ والمحبةِ ما يغمُر القلبَ سرورًا، وإذا أردتَ أن تتبيَّن شيئًا شبيهًا بذلك فاستمعْ إلى رجلينِ، أحدِهما يطيل في الكلامِ ويذكر ما لستَ بحاجةٍ إلى ذكْرِه، ويطيل في غيرِ طائلٍ، والثاني يهجُم بك على الفائدةِ من أقصرِ طريقٍ، وكلَّما سار بك جدَّد لك فائدةً؛ فإنك تجد للأولِ ثقلًا على القلبِ وضِيقًا في النفسِ، وتجد للثاني خفَّةً وتجديدَ سرورٍ ولذَّة. وشيءٌ آخرُ وهو الهجومُ بالسامعِ على المطلوبِ دَفْعُه فإن مطلوبَه في مثلِ [الخفيف]:

= لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر؛ فإنك به ترى ترك الذكر أفصح من الذكر والصمت، أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبنْ».

(١) في المطبوعة «تكرن»، وقد استقرأنا مادة (ك . ر . ن)، فلم نجد ما يوافق المعنى فيها، فلعله خطأ مطبعي.

قال لي: كيف أنتَ قلتُ عليل؛ سهرٌ دائمٌ وحُزْنٌ طويلُ[1]

معرفةُ حالِه، فإذا قال: «عليلٌ» فقد هجَم به على المطلوبِ وكفاه مئونة الانتظارِ. هذا ما نجده في نفوسِنا عندما نُسَرُّ لحذفِ كلمةٍ ونبحَث عن علَّةِ هذا السُّرورِ وهذا الارتياحِ.

وشيءٌ آخَرُ هذه الجِدَّة التي تراها في هذا الأسلوبِ؛ فإن الناس قد اعتادوا الأسلوبَ الذي لم يُحذَفْ منه شيءٌ؛ لكثرةِ دورانِه في الكلامِ[2]، ولم يعتادوا الأسلوبَ الذي حذِف منه أحدُ جزأي الإسنادِ؛ لقلَّة دورانِه في ألسنتِهم، فإذا سمِعوا الكلامَ المحذوفَ منه شيءٌ سمِعوا الجديدَ الذي لم يألفوه، والبِدْعَ الذي لم يعتادوه فاستمتَعوا منه بما يستمتِعون من الجديدِ المبتدَعِ، والغريبِ المبتكَرِ، وليست هذه الجِدَّةُ في السمعِ فحسبُ بل هي جِدَّةٌ في الفكرِ، فقد كنتَ تتلقَّى المعانيَ من الألفاظِ فصِرْتَ تَتلقَّاها من العقلِ، يدلُّ عليها ويشيرُ إليها، وإن ذلك لَيَروعُك ويؤثِّر عليك وإن كنتَ لا تدري مأتاه ولا مَصْدَرَه.

جاء السكَّاكيُّ[3] والخطيبُ[4] ومَن بعدهما وأبَوا أن يكونَ للحذفِ مَزيَّةٌ

---

(١) البيت في دلائل الإعجاز ٢٣٨، والإيضاح في علوم البلاغة ٢/ ٥، ١٢١، وهو بيت مشهور لكنه غير منسوب، وهو شاهد على حذف المسند إليه وشبه كمال الاتصال.

(٢) كثرة الاستعمال تجيز الحذف والخروج عن الأصل والقياس، انظر: الخصائص ١/ ١٢٥، الإنصاف في مسائل الخلاف ٢٢٥، ٥٢٨، الأشباه والنظائر في النحو ١/ ٥٧٣-٥٧٩.

(٣) أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي إمام في النحو والصرف والبلاغة والعروض (ت ٦٢٦هـ)، انظر ترجمته في: تاريخ الإسلام ٣/ ٨٢٨، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ١١٠.

(٤) جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الدمشقي، الخطيب، أديبٌ قاضٍ =

على الذِّكْرِ، وجعَلوا الحذفَ في موضعِه كالذِّكْرِ في موضعِه، وجعلوهما حالينِ من أحوالِ اللفظِ العربيِّ التي بها يطابق اللفظُ مقتضَى الحالِ فيحصِّلان البلاغةَ، ثم ذهبوا يبحثون عن المقاماتِ التي تقتضي الذِّكْرَ أو الحذفَ، فقالوا: أما حذفُ المسنَدِ إليه فللاحترازِ عنِ العبثِ، بناء على الظاهرِ أو تخييلِ العدولِ إلى أقوى الدليلينِ من اللفظِ أو العقلِ، أو اختبارِ تنبُّهِ السامعِ أو مقدارِ تنبُّهِه أو صَوْنِه عن لسانِك أو صونِ لسانِك عنه، أو تأتِّي الأفكارِ عند الحاجةِ أو ادعاء تعيُّنِه، وجعَلوا للذِّكْرِ مقامًا وهو أنه الأصلُ ولا مقتضَى للعدولِ عنه أو الاحتياطِ؛ لضعفِ التعويلِ على القرينةِ أو التنبيهِ على غَباوةِ السامعِ، أو زيادةِ الإيضاحِ والتقريرِ، أو إظهارِ تعظيمِه أو إهانتِه، أو التبرُّك بذكْرِه أو استلذاذِه، أو بسطِ الكلامِ حيث الإصغاءُ مطلوبٌ[1].

فأنت تراهم سَوَّوا بين الذِّكْرِ والحذفِ عند المقتضَى، وقد كان يُفهَم من كلامِ عبدِ القاهرِ أن للحذفِ مَزِيَّةً لا تكون لغيرِها، ولومشَيْنا على ما مشَى عليه عبدُ القاهرِ لَعَلِمْنا اختصاصَ الحذفِ بهذه المزيَّةِ، ودعانا ذلك إلى مراعاةِ الحذْفِ في أساليبِنا ما وجَدْنا إلى ذلك سبيلًا.

ونراهم قد ذهَبوا عن العِلَلِ الحقيقيةِ لجمالِ الحذفِ، وهي ما ذَكَرْناها إلى العِلَلِ التي ذكَروها، وبعضُ هذه العللِ صناعيةٌ لا تَخطُر إلا ببالِ الذين توغَّلوا

= فقيهٌ (ت ٧٣٩هـ)، انظر ترجمته في: البدر الطالع ٢/ ١٨٣، طبقات الشافعية لابن السبكي ٩/ ١٥٨، تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها ١٣٤.

(١) انظر: المفتاح ١٧٦، التلخيص ١٨، الإيضاح ٢/ ٤.

في صناعةِ العلومِ العقليةِ كتخييلِ العدولِ إلى أقوى الدليلينِ من العقلِ واللفظِ، وبعضُها لا يخطُر للبليغِ المتكلِّم ولا للسامعِ ببالٍ. أما العللُ التي ذكَرْناها فهي عللٌ نفسيةٌ قد يشعُر المرء بآثارِها ولا يدرِكها، ولكنَّ الفلسفيَّ العارفَ بخفايا النفوسِ يدرِكها ويؤمِن بها.

ولقد رغبت أن أحمِّل كلامَهم ما ذكرته من المعاني، فقد قالوا: «وأما حذفُه فللاحترازِ عن العبثِ، بناء على الظاهرِ أو تخييلِ العدولِ إلى أقوى الدليلينِ من العقل واللفظِ». فقلت: قد قالوا الاحترازُ عن العبثِ، وهذا يؤدي إلى الاستثقالِ، والحذفُ يؤدي إلى رفعِ هذا الاستثقالِ، وقد لحَظوا في قولهم: «تخييل العدول إلى أقوى الدليلينِ من العقلِ واللفظِ»، أن الدلالةَ على المحذوفِ عقليةٌ[1].

ولكنني رأيتهم يرعَوْن في غيرِ هذا الجانبِ، فقد قال صاحب «المطوَّل» في شرح ذلك: «فللاحترازِ عن العبثِ؛ إذِ القرينةُ دالَّةٌ عليه فذِكْرُه عبثٌ لكن لا بناء على الحقيقةِ في نفْسِ الأمرِ، بل بناء على الظاهر، وإلا فهو في الحقيقةِ الركنُ الأعظمُ من الكلامِ، فكيف يكون ذكْره عبثًا؟ وقيل: معناه إنه عبثٌ؛ نظرًا إلى ظاهرِ القرينةِ، وأما في الحقيقةِ فيجوز أن يتعلَّق به غرضٌ مثلُ التبركِ والاستلذاذِ والتنبيهِ على غَباوةِ السامعِ، ونحو ذلك»[2].

ثانيًا: لي من فلانٍ صديقٌ حميمٌ، لئن سألتَ فلانًا لتَسألنَّ به البحرَ، لئن لقيتَ فلانًا لتَلقينَّ به الأسدَ.

---

(١) انظر: المفتاح ١٧٦، التلخيص ١٨، الإيضاح ٢/ ٤. وانظر كذلك مختصر المعاني، مختصر (شرح تلخيص المفتاح) للتفتازاني ٤٧، شرح عقود الجمان للسيوطي ١٨.

(٢) انظر: المطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم) للتفتازاني، ٢١١.

هذه أمثلةٌ فيها جَمالٌ وبلاغةٌ ويحسُّ المرء بطربٍ لا يجِده إذا قال: فلانٌ صديقي الحميمُ، أو: فلانٌ كالأسدِ أو كالبحرِ- وقد أحسَّ علماء البلاغةِ هذا الجمالَ فذهَبوا يَحُدُّونه ويميِّزونه ويعرِّفون أسبابَه، وأخيرًا سمَّوا هذا النوعَ الذي أحدَث ذلك الجمالَ «التجريدَ»، وقالوا في تعريفِه ما يأتي: التجريدُ أن يُنتزَع من أمرٍ ذي صفةٍ أمرٌ آخرُ مثلُه فيها؛ مبالغةً لكمالها فيه[1].

فقولُنا: لي من فلانٍ صديقٌ حميمٌ يؤخَذ منه أن فلانًا بلَغ من الصداقةِ حدًّا، صحَّ معه أن ينتزَع منه آخَرُ مثلُه في الصداقةِ. وكذلك: «لئن لقيتَه لَتلقَينَّ به الأسدَ»، يؤخذ منه أنه بلَغ من الشجاعةِ حدًّا يصلُح معه أن ينتزَع منه أسدٌ مثلُه في الشجاعةِ؛ وذلك لكمالِ الشجاعةِ فيه.

وكذلك: «لئن لقيتَه لتلقينَّ به البحرَ»، يفيد أنه بلَغ من الكرمِ حدًّا صحَّ معه أن ينتزَع منه بحرٌ مثلُه في الكرمِ؛ وذلك لكمالِه في الكرمِ.

وهذا تصورٌ غريبٌ لهذه الأمثلةِ التي فيها هذا النوعُ من البلاغةِ، فلم تجرِ عادةٌ أن المرء إذا بلَغ حدًّا من الكرمِ صحَّ أن ينتزَع منه بحرٌ مثلُه في الكرمِ؛ وذلك لكمالِه فيه، وليتَ شِعْري ما هذا الانتزاعُ؟ أهو بطريقِ الولادةِ أم بطريقٍ آخرَ كانتزاعِ الصخرِ من الجبلِ، أم كانتزاعِ الثوبِ من اللابسِ؟

---

(١) انظر: الإيضاح في علوم البلاغة ٣٣٩، مختصر المعاني ٢٧٦، ٢٧٧، عروس الأفراح ٢/ ٢٥٦، شرح عقد الجمان ١٣٠، الأطول شرح تلخيص المفتاح ١/ ١٠٥، ٢/ ٤١٧، ٤١٨. قال أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ) في سبب تسمية هذا النوع من الكلام بـ«التجريد»: إن العرب تعتقد أن في الإنسان معنًى كامنًا كأنه حقيقته ومحصوله، فتخرج ذلك المعنى إلى ألفاظها مجردًا عن الإنسان كأنه غيره، وهو هو بعينه. انظر الخصائص ٢/ ٤٧٥، ٤٧٦، المثل السائر ٢/ ١٣٢، علوم البلاغة للمراغي ٣٣٦.

هذه الحالةُ لا تدلُّ على كرمٍ ولا على مبالغةٍ فيه، فما عُهِد أن الكريمَ إذا بلَغ في الكرمِ المبلغَ العظيمَ انتُزِع منه بحرٌ يساويه في الكرمِ!

وإن فهْمَ هذه الأمثلةِ على هذا الوجهِ يضيِّع بلاغتَها ويفسِد معناها، ويجعله تصورًا كتصورِ البُلْه والممرورين[١]: كريمٌ يلد بحرًا، أو شجاع يُشتَقُّ منه أسدٌ، وصديقٌ يُنتزَع منه صديقٌ.

وقد كنا نفهم من هذه الأمثلةِ قبل أن نعرفَ التجريدَ في علومِ البلاغةِ أن فيها حذفًا: لئن لقيتَ فلانًا لتلقينَّ به الأسدَ، الأصلُ: لتلقينَّ بلقائه -أي بسببِ- لقائه الأسدَ، فحذَف «لقاء»، وإنما كنتَ تلقَى بلقائه الأسدَ؛ لأنه شبيهُه فلستَ تلقَى بلقائه إلا أسدًا، وما الجَمالُ فيه إلا من جهةِ أنه أعطاك التشبيهَ بطريقٍ مَكْنيٍّ عنه لم يصرّح به، وأنه صوَّره بصورةِ الأسدِ حتى كأنك تحسُّه وتراه ولستَ تجد أحدًا له ذوقٌ في البلاغةِ يفهم من هذه الأمثلةِ إلا ما قدَّمناه، وهو المعنى الذي يخطُر لأولِ نظرةٍ، ولكن علماء البلاغة يأبَوْن إلا أن يجعَلوه تجريدًا، وتوليدَ شيء من شيء لم يلِده، وانتزاعَ شيء من شيء لم ينتزَع منه.

ومن عجبٍ أن هذا المعنى المتبادَرَ قد شعَر به بعضُ العلماء فذكَره وأبان أن أمثلةَ التجريدِ مبنيَّةٌ على الحذفِ[٢]، فأنكَره العلماء المتأخرون وقاوَموه

(١) الممرورون: جمع ممرور، وهو من غلبت عليه المِرَّة وهاجت عليه. انظر: المعجم الوسيط (م. ر. ر) ٢/ ٨٦٢.

(٢) فُسِّر التجريد على أنه حذف مضاف، فقولك: لقيت من زيد أسدًا، أي: لقيت من لقائه أسدًا، كأنه جرد على جميع الصفات إلا صفة الأسد. انظر: شرح عقود الجمان للسيوطي ٨٩، عروس الأفراح ١/ ٢٧٩، شرح الشيخ خالد الأزهري على عوامل =

ودفَعوا في صدْرِه حتى لم يَبْقَ إلا هذا المعنى السَّخيفُ الذي ينكِره الذوقُ ويَنْبو عنه الفهمُ، ويجعل «الأسد» منتزَعًا من «الشجاعِ»، و«البحرَ» متولَّدًا من «الكريم»، وذلك مبالغةً لكمالِ هذه الشَّجاعةِ في هذا الشُّجاعِ، وكمالِ الكرمِ في هذا الكريمِ.

ثالثًا: رأيتُ اليومَ حاتمًا، ولقيتُ مادرًا، وسمعت سَحْبانَ، وكان في المجلس باقلٌ. هذه مُثُلٌ تدور على أمثلةِ المتكلِّمين، والغرضُ منها التشبيهُ؛ تشبيهُ الممدوحِ بحاتمٍ في الكرمِ وبسَحْبانَ في الفصاحةِ، وتشبيهُ المذمومِ بمادرٍ في البخلِ وباقلٍ في الفهاهةِ[1]، ولكن علماء البلاغةِ لا يقتصِرون على ذلك بل يتأولون في «حاتمٍ» فينزِعونه من معناه وهو العَلَميةُ على الرجلِ المعروفِ من طَيِّئ ويجعلونه كأنه موضوعٌ للجَواد، سواء أكان ذلك الرجلُ المعهودُ من طيئ أم آخرَ غيرَه، فبهذا التأويلِ يكون حاتمٌ متناولًا للفردِ المتعارَفِ المعهودِ، والفردِ غيرِ المتعارفِ، وهو من يتَّصِف بالجودِ لكنَّ استعمالَه في غيرِ المتعارفِ يكون استعمالًا في غيرِ ما وضِع له فيكون استعارةً.

وإنما فعلوا ذلك ليحافِظوا على الأصلِ الذي وضَعوه؛ وهو أن الاستعارةَ تقتضي إدخالَ المشبَّه في جنسِ المشبَّهِ به؛ بجعْلِ أفرادِه قسمين: متعارفًا وغيرَ متعارفٍ[2]، ولا يمكن ذلك إلا في اسمِ الجنسِ ولا يمكن في الأعلامِ؛ لأن

= الجرجاني ١٢، المقاصد النحوية ١/ ٣٥، ٣٦، شرح الدماميني على المغني ١/ ٤٠٩.

(١) أي: العي والعجز عن الكلام.

(٢) انظر: مفتاح العلوم ٣٦٩، مختصر المعاني (شرح تلخيص المفتاح) ١/ ٢٢٣- ٢٢٥، ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٥٣، عروس الأفراح ٢/ ٢٩، ١٥٠، ١٩٢، شرح عقود الجمان ١١٠.

العلَم وضِع لذاتٍ مخصوصةٍ لا يتناول غيرَها، فلهذا ارتكب هذا التأويل فيجعل العَلَم اسمَ جنسٍ؛ ليمكن ادعاء دخولِ المشبَّهِ في جنسِ المشبَّهِ به.

ويردُّ هذا الذي ذهَب إليه البيانيون أنه ليس مِن أحدٍ يتكلَّم بهذه الأمثلةِ يقصِد هذا الذي قالوه، ولا يفهَم أحدٌ ممن يسمَعها هذا المعنَى الذي ذكَروه، فما من أحدٍ يقول: رأيتُ اليومَ حاتمًا ويدور بخَلَدِه أنه شَبَّه ثم تأوَّل حاتمًا فنزَعه من العَلَميَّةِ وجعَله كأنه موضوعٌ للكريمِ الجوادِ وصار له فَرْدان: فردٌ حقيقيٌّ هو ذلك الجوادُ من طيِّئ، وفردٌ ادعائيٌّ هو ذلك الممدوحُ إلى آخرِ هذه السُّورةِ[1].

وليس أدلَّ على فسادِ هذا الرأي من أنه دعوى لما لا يخطُر بذهنِ متكلِّمٍ أو سامعٍ، فنحن نشرح أقوالَ المتكلِّمينَ بما يريدون ويَعْنون، وكلُّ هذه السورةِ لا تخطُر إلا بأذهانِ هؤلاء البيانيينَ الذين اخترَعوها.

ضعْ يدَك على أيِّ بليغٍ تختاره وسَلْه: ماذا يريد بقولِه: رأيت حاتمًا اليوم؟ فإنه يُجِيبك: أردتُ تشبيهَ هذا الكريمِ بحاتمٍ في جودِه وكرمِه.

وسَلْه: أهو تأوَّل في حاتمٍ وأراد منه مطلَق «جوادٍ»، وأنه صار يشمل حاتمَ طيِّئ وهذا الجواد الممدوح؟ فإنه ينفي ذلك كلَّه ويقسم إنه لم يُرِدْ شيئًا من هذا، ولم يُرِدْ إلا التشبيهَ بحاتمٍ في الجودِ.

على أنه إذا كان معنى «حاتمٍ» الجوادَ فلا استعارةَ؛ لأن الجوادَ يطلَق على سبيلِ الحقيقةِ على الممدوحِ، بخلاف «أسدٍ» في قولنا: رأيتُ أسدًا يرمي،

(١) أي: هذا النسق والبناء. انظر: المعجم الوسيط (س. و. ر)، ١/ ٤٦٢. وانظر تفصيل ذلك عند معاصره حامد عوني في: المنهاج الواضح للبلاغة ٤/ ٦٢، ٦٣.

فإنه لا يطلَق على الممدوحِ على سبيلِ الحقيقةِ، فكان استعارةً، وهذا التكلُّف العظيمُ ليحافِظوا على أصلٍ اخترَعوه؛ وهو أن الاستعارةَ تقتضي دخولَ المشبَّه في جنسِ المشبَّهِ به، وهذا الأصلُ أوردوا هم عليه اعتراضًا، وهو أنه كيف يدَّعي دخولَ المشبَّه في جنسِ المشبَّه به[١]، ويقيم القرينةَ لتدلَّ على أنه أراد المشبَّه لا المشبَّه به، وأجابوا بأنه بعد الادعاء صار للمشبَّه به فَرْدان: فردٌ حقيقيٌّ وفردٌ ادعائيٌّ، والقرينةُ قامت لتنفيَ الفردَ الحقيقيَّ وتثبِتَ الفردَ الادعائيَّ، فدخَلوا في بابٍ آخرَ من الإغرابِ لم يُرِدْه متكلِّمٌ ولم يَفهَمْه سامعٌ.

ولعلَّكم تستعظِمون هذا وتُكْبِرونه وترونه أمرًا هائلًا، وسأخبِركم بما هو أعظمُ منه وأشدُّ هولًا: إن هذه العلومَ التي ندرُسها ونسمِّيها «علومَ البلاغةِ» ليست علومَ البلاغةِ، وإن علْمَ المعاني ليس علْم المعاني[٢] وعلْمَ البيانِ ليس علْمَ البيانِ، وإلى الآن لم يكشَف عن حقيقتِهما ولم يعرَف موضوعُهما، ولم يتصوَّرا تصورًا يحدُّهما ويميِّزهما، كما أنه لم تتصوَّر البلاغةُ على حقيقتِها، فغلِط في مسائلِ البلاغةِ بقدْرِ ما في هذا التصورِ من غلطٍ، وكنت أودُّ أن أبيِّن ذلك الآن ولكنني آثرتُ أن يكونَ ذلك موضوعًا مستقلًّا أضع فيه مؤلَّفًا أبيِّن فيه كيف تصوَّرها المتأخِّرون تصورًا غيرَ مطابقٍ للواقعِ، وانبنَى على ذلك أنهم حَدُّوها حدًّا لا يطابِق الواقعَ وفرَّعوا على ذلك مسائلها، فجاء فيها ما لا يَمتُّ إلى علومِ البلاغةِ بسببٍ ولا صلةٍ[٣].

---

(١) انظر ما تقدم صـ ١٥٠، ١٥١.

(٢) في المطبوعة: «المباني».

(٣) انظر: مجلة الأزهر، عدد ربيع الأول ١٣٧٢هـ، بعنوان: «علوم البلاغة في الميزان»، =

أمْنِـيةٌ

لقد استطاعت مصرُ أن تنجِب الأدباء الذين يجذِبون الأنظارَ إليهم، ويشغَلون الناسَ بهم، والذين يجعلون الناسَ فيهم أقسامًا وشِيَعًا؛ فمنهم مَن يمدَح هذا ويَذُمُّ ذاك، ومنهم من يخالف، ومنهم من يتعصَّب لطريقةِ هؤلاء ويُزْرِي على طريقةِ أولئك، ومنهم من يعكِس في الحكمِ ويخالف في العصبيةِ، وبذلك وجِدت حركةٌ أدبيةٌ قويةٌ ومدارسُ أدبيةٌ مختلفةٌ[(١)].

ولكنها لم تستطعْ أن تنجِب العلماء الذين يبدون الآراء العلميةَ في نقدِ طرقِ التعليمِ وأساليبِه، وقواعدِ العلمِ ومسائلِه، وأنظمةِ المجتمعِ وقواعدِه ويكسونها من الزِّينةِ والملابساتِ ما يجذِب إليها الأنظارَ، ويشغَل بها الناسَ، ويفرِّق الناسَ فيها فِرقًا مختلفةً، ومدارسَ متباينةً، ينصر هؤلاء

= الذي يحمل طابعًا قويًا في سبيل التجديد البلاغي؛ فيعرض للحذف البلاغي وأسراره عند عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧٤هـ)، وتطور أسلوب الحذف عند السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، والخطيب القزويني (ت ٧٣٩هـ)، ويحمل على البلاغيين الذين عللوا الحذف بعللٍ بعيدة عن أحكام الذوق الأدبي السليم؛ ويربط بين البلاغة وأحكام الذوق وأسرار البيان وملَكات النفس الإنسانية، ويثير المقال كذلك أسلوب التجريد وتحليل ألوانه وجماله وسر هذا الجمال، بعيدًا عن التكلف والتأويل. للمزيد راجع المقال المذكور بمجلة الأزهر (عدد ربيع الأول ١٣٧٢هـ)، كلام د. محمد عبد المنعم خفاجي عليه في: الإيضاح في علوم البلاغة ٢/ ١٨٠.

(١) عن الحركة الأدبية الحديثة والمعاصرة في مصر، راجع تاريخ الأدب الحديث لعمر الدسوقي بك، الأدب الحديث في مصر لمحمد عبد المنعم خفاجي، تطور الأدب الحديث في مصر لأحمد هيكل، الأدب المعاصر في مصر لشوقي ضيف، أعلام الأدب المعاصر في مصر لحمدي السكوت ومارسدن جونز.

هذا الرأيَ بالحججِ والأدلَّةِ، ويخالف هؤلاء فيبطِلونه بالحجَجِ والأدلَّةِ، ويخلُقون في الأمَّة الرغبةَ في إدراك حقائقِ الأشياء وقوانينِ الوجودِ، وفي البحثِ عن أفضلِ الوسائلِ لترقيةِ التعليمِ والأخلاقِ، وإصلاحِ المجتمعِ لتكونَ الأمَّةُ أسعدَ وأرقَى وأبعدَ عن الشَّقاء.

بهذا تتدرَّج الأمَّة في مدارجِ الرُّقيِّ وتترقَّى في مَراقي الخيرِ والصلاحِ، فما أحوجَها إذًا إلى أن تنجِب هؤلاء العلماء.

لقد استطاعت أوروبا أن تنجِب هؤلاء العلماء فنقَلوها من فوضَى إلى نظامٍ، ومن جهلٍ إلى علمٍ، ومن فسادٍ إلى صلاحٍ، وأخرَجوها من العصورِ المظلمةِ إلى عصرِ النهضةِ والإصلاحِ، وهذه المخترعاتُ التي يَنْعَم بها الناسُ هي من آثارِ عصرِ النهضةِ، ومن آثارِ هؤلاء العلماء.

ولم يستطيعوا ذلك إلا بعد أن آمنوا بعلمِهم كإيمان المؤمنِ بعقيدتِه، وبعد أن أحبُّوه كما يحبُّ المرء أهلَه، وغاروا عليه كما يغار المرء على حريمِه، وآمَن العالِم منهم أن نظريتَه فيها الخيرُ لأمَّته، وهو حريصٌ على أن يقدِّم لها من الخيرِ ما يستطيع.

إنني حريصٌ على أن أبعثَ في مصرَ هذه النهضةَ، فهل أستطيع؟ وهل كتَب القدَرُ الحكيمُ لمصرَ أن تبلُغ هذه المنزلةَ الكريمةَ بين أممِ النهضةِ والمدنيَّةِ الحديثةِ؟

إنني أدعو رجالَ التعليمِ في مصرَ أن يجهَروا بآرائهم التي يعتقِدونها، وأن يدعو إليها، وأن ينصِبوا من الأدلَّةِ على صحَّتِها ما استطاعوا، وأن يؤمنوا بأن كلمةَ الخيرِ لن تذهب سدًى، وأن الأمَّة لن ترقَى إلا بخلْعِ أساليبِها الواهنةِ

الضَّعيفةِ، والاستعاضةِ عنها بأساليبَ أحقَّ وأقوى، وأن ذلك موكولٌ إليهم، وأمانةٌ في أعناقِهم، وأن الخيرَ للأمَّة في هذه الحركةِ، والشرَّ في هذا الركودِ وترْك كلِّ ما كان على ما كان، وأن واجبًا عليهم أن يعمَلوا لأمَّتهم كلَّ خيرٍ، وأن يجنِّبوها كلَّ شرٍ، هذا الواجبُ يوجِبه الدِّين والخلُق وأولُ مبادئ الاجتماعِ.

إنهم إذا آمَنوا بذلك كانوا حركةً دائبةً في البحثِ والتنقيبِ والاختراعِ والاستنباطِ، واقتراحِ الآراء التي يرونها، ومناقَشةِ الآراء التي يرفضونها، ولم يدَعوا رأيًا يظهَر أو اقتراحًا يقترَح إلا وكان لهم فيه صوتٌ؛ فإن وافَق ما يعتقِدون نصَروه ودافَعوا عنه، وأقاموا من نصرتِه ما عساه أن يكونَ نَدَّ عن صاحبِه، وإن خالَف ما يعتقِدون أبانوا ضررَه وبطلانَه، وأقاموا ما استطاعوا من الحُجَج على فسادِه ونفَّروا قومَهم منه، وأبانوا ما فيه من زَيْفٍ ونَقْصٍ.

بذلك يستطيعون أن يخلُقوا في مصرَ نهضةً تحاكي ما كان في أوروبا من تلك النهضةِ التي يجني العالَم ثمارَها اليومَ.

وإنِّي لَحسنُ الظنِّ برجالِ التربيةِ والتعليمِ في مصرَ، وأرى أن فيهم ما شرَحت من خلالٍ، وأن الأمرَ لا يحتاج إلا إلى مثلِ هذا التذكيرِ.

ولقد كتبت هذا البحثَ، وقدمت هذا الاقتراحَ في تعليمِ اللغةِ العربيةِ وأذعتُه بينهم، وإنه لَاختبارٌ سريعٌ، وفي يقيني أن هذا الاختبارَ سيُسْفِر عن أنني لم أكن مسرفًا في حسنِ الظنِّ.

ووزارةُ المعارفِ والجامعةُ الأزهريةُ وجامعتا فؤاد وفاروق، وجميعُ هيئاتنا الثقافية العليا تحمِل في عنقها الأمانةَ المقدَّسةَ، التي سيكون في أدائها مجدُ مصرَ ونهضةُ الشَّرقِ.

محمد عرفة

٥ من ربيع الثاني سنة ١٣٦٤هـ/ ١٩ من مارس سنة ١٩٤٥م

❁ ❁ ❁

٧- فهرس المصادر المراجع

* الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، للدكتور محمد محمد حسين (ت ١٤٠٣هـ)، مكتبة الجماميز، القاهرة، ١٩٥٤م- ١٩٥٦م.

* إحياء النحو، لإبراهيم مصطفى (ت ١٣٨٢هـ)، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

* الأدب الصَّغير والأدب الكبير، لعبد اللَّه بن المقفَّع (ت ١٤٢هـ)، دار صادر، بيروت، د. ت.

* ارتشاف الضَّرَب من لسان العرب لأبي حَيَّان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق وشرح ودراسة د. رجب عثمان محمد، مراجعة د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

* إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، لشهاب الدين أبي عبد اللَّه ياقوت بن عبد اللَّه الرومي الحموي، (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

* الأزهر في ألف عام، للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي (ت ١٤٢٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

* الأزهر والشيعة (تاريخ وفتاوى وآراء)، تقديم وتعليق د. محمد عمارة، هدية مجلة الأزهر، عدد المحرم ١٤٣٤هـ.

* الإسلام أم الشيوعية، للشيخ محمد أحمد عرفة (ت ١٣٩٣م)، مطابع دار الكتاب العربي، ١٣٧٩هـ.

* الأشباه والنظائر في النحو، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبد الإله نبهان، وزملائه، مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٤٠٧هـ.

* الأصمعيات اختيار الأصمعي، لأبي سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت ٢١٦هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، الطبعة السابعة، ١٩٩٣م.

* الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، لإبراهيم بن محمد بن عربشاه الحنفي (ت ٩٤٣هـ)، تحقيق وتعليق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.

* الأعلام، لخير الدين بن محمود الزِّرِكْلي (ت ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة، ١٤٢٣هـ.

* أعلام الفلاسفة، لهنري توماس، ترجمة متري أمين، مراجعة وتقديم د. زكي نجيب محمود، دار النهضة العربية، ١٩٦٤م.

* الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني (ت ٣٥٦هـ)، تحقيق: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، د.ت.

* الاقتراح في أصول النحو وجدله، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر

السيوطي (ت ٩١١هـ) حققه وشرحه: د. محمود فجال، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

* الأمالي للقالي، لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي (ت ٣٥٦هـ)، عني بوضعها وترتيبها محمد عبد الجواد الأصمعي (ت بعد ١٣٨٧هـ)، دار الكتب المصرية الثانية، ١٣٤٤هـ.

* إنباه الرواة على أنباه النحاة، لجمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: ٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ.

* الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين، لكمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت ٥٧٧هـ)، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

* الإيضاح في علوم البلاغة، لجلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني الدمشقي الخطيب (ت ٧٣٩هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي (ت ١٤٢٧هـ)، دار الجيل - بيروت، الطبعة الثالثة، د. ت.

* بحوث ومحاضرات الدورة الرابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٦٧ - ١٩٦٨م.

* البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع، لمحمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ)، دار المعرفة - بيروت، د. ت.

* البيان والتبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون (ت ١٤٠٨هـ)، مكتبة الخانجي، الطبعة السابعة، ١٤١٨هـ.

* تاج العروس من جواهر القاموس، لأبي الفيض محمد مرتضى بن عبد الرزاق الزَّبيدي (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، الكويت، ١٩٦٥م.

* تاريخ الإسلام ووفَيَات المشاهير والأعلام، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

* تاريخ الجامعات المصرية دراسة في الوثائق، لعبد المنعم الجميعي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٧هـ.

* تاريخ جامعة القاهرة، للدكتور رءوف عباس، دار النشر الإلكتروني، القاهرة، د. ت.

* تاريخ ابن خلدون= ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر

* تاريخ خليفة بن خياط، لأبي عمرو خليفة بن خياط العُصْفري (ت ٢٤٠هـ)، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق- بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٧هـ.

* تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، للدكتورة نفوسة زكريا

سعيد، مطبعة دار الثقافة، الإسكندرية، توزيع دار المعارف، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

* تاريخ دمشق، لأبي القاسم علي بن الحسن بن هبة اللَّه ابن عساكر الدمشقي (ت ٥٧١هـ)، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ.

* تاريخ الرسل والملوك، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

* تاريخ الطبري= تاريخ الرسل والملوك.

* تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، لأحمد مصطفى المراغي (ت ١٣٧١هـ)، الطبعة الأولى، ١٣٦٩هـ.

* تأصيل البُنَى في تعليل البِنَا، لبدر الدين محمد بن عبد اللَّه بن بهادُر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم حسنين عبد الفتاح.

* التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل، لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د. حسن هنداوي، دار القلم، دمشق (الأجزاء ١ إلى ٥)، وباقي الأجزاء: دار كنوز إشبيليا، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ.

* تلخيص المفتاح، لمحمد بن عبد الرحمن القزويني (ت ٧٣٩ هـ)، مكتبة البشرى، كراتشي، باكستان، الطبعة الأولى، ١٤٣١هـ.

* التلخيص في معرفة أسماء الأشياء، لأبي هلال الحسن بن عبد اللَّه العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ)، عني بتحقيقه: الدكتور عزة حسن، دار

طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٩٦م.

* التمثيل والمحاضرة، لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو (ت ١٤١٤هـ)، الدار العربية للكتاب، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

* التنبيه والإشراف، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦هـ)، تصحيح: عبد اللّٰه إسماعيل الصاوي، مكتبة الصاوي، القاهرة، د. ت.

* تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

* تيسير النحو التعليمي قديمًا وحديثًا مع نهج تجديده، للدكتور شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.

* جامعة القاهرة في عيدها المئوي، لمحمود فوزي المناوي، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.

* جمهرة أعلام الأزهر الشريف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين، للدكتور أسامة السيد، مكتبة الإسكندرية، ١٤٤٠هـ.

* الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ.

* الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جِنِّي الموصلي (ت ٣٩٢هـ)،

تحقيق: محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الرابعة، د. ت.

* دراسات نقدية في النحو العربي، للدكتور عبد الرحمن أيوب، مؤسسة الصباح، الكويت، د. ت.

* دلائل الإعجاز في علم المعاني، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (ت ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني، جدة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ.

* ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب، تحقيق: د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، الطبعة الثالثة، د. ت.

* ديوان حافظ إبراهيم، لحافظ إبراهيم (ت ١٣٥١هـ)، ضبط وتصحيح أحمد أمين، أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، الهيئة العامة المصرية للكتاب، الطبعة الثالثة، ١٩٧٨م.

* ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء الأول، (المقدمة)، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ.

* ديوان المتنبي، لأبي الطيب أحمد بن الحسين المتنبي (ت ٣٥٤هـ)، صححه وقارن نسخه وجمع تعليقاته: د. عبد الوهاب عزام، لجنة التأليف والترجمة والنشر، د.ت.

* الردُّ على النحاة، لابن مضاء القرطبي (ت ٥٩٢هـ)، تحقيق د. شوقي ضيف (ت ١٤٢٧هـ)، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٧م.

* رسالة الأزهر في القرن العشرين، للشيخ محمد أحمد عرفة (ت ١٣٩٣هـ)، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٤٥م.

* روضة الإعلام بمنزلة العربية من علوم الإسلام، لأبي عبد اللَّه محمد بن علي بن الأزرق الغرناطي (ت ٨٩٦هـ)، تحقيق سعيدة العلمي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ١٤٢٩هـ.

* سقط الزند، لأبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، دار بيروت للطباعة والنشر، دار صادر للطباعة والنشر، ١٣٧٦هـ.

* شرح الأزهري على عوامل الجرجاني = شرح العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية.

* شرح تسهيل الفوائد، لجمال الدين أبي عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه ابن مالك الطائي، (ت ٦٧٢هـ)، تحقيق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

* شرح التصريح على التوضيح أو (التصريح بمضمون التوضيح في النحو)، لزين الدين خالد بن عبد اللَّه الأزهري (ت ٩٠٥هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

* شرح الدماميني على مغني اللبيب، لبدر الدين محمد بن أبي بكر بن عمر المخزومي، المعروف بالدماميني (ت ٨٢٧هـ)، تحقيق: الشيخ أحمد عزّو عناية، مؤسسة التاريخ العربي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

* شرح العوامل المائة النحوية في أصول علم العربية، لخالد بن عبد اللَّه الأزهري (ت ٩٠٥هـ)، تحقيق د. البدراوي زهران، دار المعارف، القاهرة، د. ت.

* شرح ديوان الحماسة (ديوان الحماسة: اختاره أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (ت ٢٣١هـ)، لأبي زكريا يحيى بن علي التبريزي (ت ٥٠٢هـ)، دار القلم - بيروت، د. ت.

* شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب، لأبي محمد عبد اللَّه بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تحقيق: عبد الغني الدقر، الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا، د. ت.

* شرح شواهد المغني، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، وقف على طبعه وعلق حواشيه أحمد ظافر كوجان، وذيِّل بتعليقات: الشيخ محمد محمود ابن التلاميد الشنقيطي، لجنة التراث العربي، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

* شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، دار الفكر، بيروت، د. ت.

* شعر عبد اللَّه بن الزبير الأسَدي (ت ٧٣هـ)، جمع وتحقيق يحيى الجبوري (ت ١٤٤٠هـ)، دار الحرية، بغداد، ١٣٩٤هـ.

* الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني (ت ٣٩٥هـ)، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر (ت ١٤٠٩هـ)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ٢٠٠٣م.

* الصَّحاح: تاج اللغة وصَحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧هـ.

* الصحيفة السوداء (مجموعة مقالات نشرت في جريدة الأهرام ثم جمعت في كتاب)، للشيخ محمود أبو العيون (ت ١٣٧١هـ)، الطبعة الأولى، ١٣٤٠هـ.

* الصَّعقة الغضبية في الرد على منكري العربية، لنجم الدين سليمان بن عبد القوي الطوفي (ت ٧١٦هـ)، دراسة وتحقيق د. محمد بن خالد الفاضل، مكتبة أهل الأثر، لطائف لنشر الكتب والرسائل العلمية، الكويت ٢٠١٨م/ ١٤٣٩هـ.

* طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (ت ٧٧١هـ)، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

* العربية وعلم اللغة البنيوي، لحلمي خليل، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م.

* عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين أبي حامد أحمد بن علي بن عبد الكافي السبكي (ت ٧٧٣هـ)، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.

* علم العروض والقافية، لعبد العزيز عتيق (ت ١٣٩٦هـ)، دار النهضة العربية، بيروت، د. ت.

* علم اللغة العربية، لمحمود فهمي حجازي (ت ١٤٤١هـ)، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د. ت.

* علوم البلاغة: البيان والمعاني والبديع، لأحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤١٤هـ.

* فتوح مصر والمغرب، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد اللّه بن عبد الحكم، المصري (ت ٢٥٧هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٥هـ.

* فقه اللغة لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق د. خالد فهمي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ٢٠١٨م.

* في إصلاح النحو العربي، للدكتور عبد الوارث مبروك سعيد، دار القلم للنشر والتوزيع - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

* في أصول اللغة، الجزء الثالث، إعداد مصطفى حجازي، ضاحي عبد الباقي، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.

* في الميزان: غوستاف لوبون، لشوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

* الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير الجزَري (ت ٦٣٠هـ)، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

* كتاب العروض، لأبي الفتح عثمان بن جِنِّي الموصلي (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: د. أحمد فوزي الهيب، دار القلم - الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

* لسان العرب، لجمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

* اللَّمحة شرح المُلْحة اللمحة في شرح الملحة، لأبي عبد اللَّه محمد بن حسن الجُذامي، المعروف بابن الصائغ (ت ٧٢٠ هـ)، تحقيق: إبراهيم بن سالم الصاعدي، عمادة شئون البحث العلمي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

* المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين أبي الفتح، نصر اللَّه بن محمد عبد الكريم ابن الأثير الجزري (ت ٦٣٧هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٤٢٠هـ.

* المجتنى، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت ٣٢١هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، د. ت.

* مجمع الأمثال، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني (ت ٥١٨هـ)، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

* مجموع شعر عمرو بن معد يكرب الزُّبيدي، جمع وتنسيق مطاع الطرابيشي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

* محاضر جلسات الدورة السابعة والثلاثين لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٣٠هـ/ ١٩٧١م.

* مختصر المعاني (مختصر شرح تلخيص المفتاح)، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت ٧٩٣ هـ)، دار الفكر - قم، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.

* المسند، لأبي عبد اللّه أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت ٢٤١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف: د. عبد اللّه بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

* المصباح المنير، لأبي العباس أحمد بن محمد الفيومي (ت نحو ٧٧٠ هـ)، تحقيق: د. عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.

* المطول (شرح تلخيص مفتاح العلوم) لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت ٧٩٣هـ)، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠١٣م/ ١٤٣٤هـ.

* معالم التطور الحديث في اللغة العربية وآدابها، لمحمد خلف اللّه أحمد (ت ١٤٠٣هـ)، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١م.

* معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب.

* معجم البلدان، لياقوت بن عبد اللّه الرومي الحموي، (ت ٦٢٦هـ)، دار الفكر - بيروت، د. ت.

* معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد مختار عمر (ت ١٤٢٤هـ)، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ.

* المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى ورفاقه، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، دار الدعوة، القاهرة، د.ت.

* المغْرِب في ترتيب المعرَّب، لبرهان الدين أبي الفتح ناصر بن عبد السيد المطرِّزي (ت ٦١٠ هـ)، تحقيق: محمود فاخوري وعبد الحميد مختار، مكتبة أسامة بن زيد، حلب، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

* مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لجمال الدين أبي محمد عبد اللّه بن يوسف، ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ)، تحقيق: د. مازن المبارك، محمد علي حمد اللّه، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.

* مفتاح العلوم، لأبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، ضبط وتعليق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

* المفضليات، للمفضَّل بن محمد الضبي (ت نحو ١٦٨هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف - القاهرة، د. ت.

* مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني (ت ٣٩٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

* المقتضب، لأبي العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي، المعروف بالمبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب - بيروت، د. ت.

* من قضايا البلاغة والنقد عند عبد القاهر الجرجاني، للدكتور حسن بن إسماعيل الجناحي (ت ١٤٢٩هـ)، القاهرة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.

* المنهاج الواضح للبلاغة، لحامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث، ١٩٧٢م.

* الموسوعة العربية العالمية، إعداد مجموعة من العلماء والباحثين، مؤسسة أعمال الموسوعة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

* نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، للدكتور محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٧هـ.

* نحو التجديد في دراسات الدكتور الجواري، للدكتور محمد حسين علي الصغير، المجمع العلمي العراقي، ١٩٩٠م.

* نحو التيسير، لأحمد عبد الستار الجواري (ت ١٤٠٩هـ)، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

* النحو الجديد، للشيخ عبد المتعال الصعيدي (ت بعد ١٣٧٧هـ)، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت.

* النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة، للشيخ محمد أحمد عرفة (ت ١٣٩٢هـ)، تقديم فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغي، شيخ الأزهر، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٣٧م.

* نقض مطاعن في القرآن الكريم (يتضمن تفنيد ما ألقاه الدكتور طه حسين، على طلبة كلية الآداب في الجامعة المصرية)، بقلم محمد أحمد عرفة (ت ١٣٩٢هـ)، وقف على تصحيحه وعلق عليه بعض الحواشي السيد محمد رشيد رضا (ت ١٣٥٤هـ)، مطبعة المنار، الطبعة الأولى، ١٣٥١هـ.

* النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين، للدكتور محمد رجب البيومي (ت ١٤٣٢هـ)، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ١٤١٥هـ.

* همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، عالم الكتب، ٢٠٠١م.

الرسائل الجامعية

* جهود نحاة مصر المحْدَثين في تيسير الدرس النحوي في القرن العشرين، منال محمد أحمد عبد القادر القراي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة شندي، السودان، ٢٠١٦م.

* الملكة اللغوية عند المتعلم في الدرس الخلدوني: بن يحيى زكية،

رسالة ماستر، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر، ٢٠١٧م.

* الوضع والاصطلاح في النظرية اللغوية العربية لعبد الرزاق أحمد الحربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، ١٩٩٥م.

المجلات والصحف

* إصلاح الأزهر والدكتور طه حسين، مقال للشيخ محمد عرفة، مجلة الهداية الإسلامية، المجلد (١)، الجزء (٤)، رمضان ١٣٤٧هـ/ فبراير، مارس ١٩٢٩م.

* الإصلاح الحقيقي والواجب للأزهر والمعاهد الدينية، مجلة المنار، عدد شوال ١٣١٥هـ.

* ابن خلدون والدرس اللغوي الحديث، بحث للدكتور عبد الجليل مرتاض، مجلة اللغة العربية، جامعة تِلِمْسان، الجزائر، العدد (٨).

* دفاع عن الأزهر، مقال للشيخ محمد عرفة، مجلة الأزهر، المجلد (٢٤)، الجزء (٧)، رجب ١٣٧٢هـ/ مارس ١٩٥٣م.

* الدين والحياة والأزهر، مقال للشيخ محمد عرفة، جريدة المصري، عدد يونيو ١٩٥٢م، الشيخ محمد عرفة.

* علوم البلاغة في الميزان، مقال للشيخ محمد عرفة، مجلة الأزهر، عدد ربيع الأول ١٣٧٢هـ، المجلد (٢٤).

* لماذا أخفقنا في تعليم اللغة العربية وتعلمها، مقال للأستاذ عبد القادر المغربي، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، العدد (٣- ٤)، ١ مارس ١٩٤٤م.

* مجلة الأزهر، عدد صفر ١٤١٠هـ/ سبتمبر ١٩٨٩م.

* مجلة الرسالة، (مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون، لصاحبها ومديرها ورئيس تحريرها أحمد حسن الزيات)، الأعداد: (٢٤٤)، (٥٢٨)، (٥٢٩)، (٥٣٠)، (٥٣١)، (٥٣٢)، (٥٣٣)، (٥٣٦)، (٥٣٧)، (٥٣٨)، (٥٤٠).

* مجلة مجمع الفقه الإسلامي ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

* مجلة المقتطف، مجلة علمية صناعية زراعية، شهرية، أنشأها يعقوب صروف وفارس نمر، المجلد (٢٩).

* محمد عرفة (١٣٠٦- ١٣٩٢هـ/ ١٨٩٠- ١٩٧٣م)، مقال للدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، مجلة دعوة الحق، العدد (٨)، السنة ١٦، شوال ١٣٩٤هـ/ نوفمبر ١٩٧٤م.

* مشكلات الشباب، مقال للشيخ محمد عرفة، مجلة الهداية الإسلامية، المجلد (٢٢)، الجزء (٣)، ربيع الأول ١٣٦٩هـ/ ديسمبر ١٩٤٩، يناير ١٩٥٠م.

* الملكة اللغوية عند ابن خلدون، دراسة لسانية مقارنة: فايز عيسى المحاسنة، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، المجلد (٣)، عدد (٣)، يوليو ٢٠٠٧م.

* منهج رفاعة الطهطاوي النحوي في ضوء كتابه التحفة المكتبية في تقريب اللغة العربية، بحث لمحمد كشاش، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، عدد (٧٢)، خريف ٢٠٠٠م.

* * *

«من أحبَّ العربَ أحبَّ العربية،

ومَن أحبَّ العربيَّة عُنِي بها وثابَر عليها»

[فقه اللُّغة للثعالبي]